البحـــث الثانـي

أثر الوقف في تطور عمران القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ٥٦٧-٩٢٢هـ/ ١١٧٤-١٥١٦م

إعـــداد

د. محمد أحمد ملكه

مدرس بقسم الآثار الإسلامية، كلية الآثار جامعة القاهرة، مصر

mmalaka90@gmail.com

نشـــر هذا البحث وفقًا لشـــروط الرخصة (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: ملكه، محمد أحمد، أثر الوقف في تطور عمران القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ٥٦٧-٩٢٢هـــ/ ١١٧٤م - ١٥١٦م، مجلة وقف، العدد: ١٠، محرم ١٤٤٦هـ، يوليو ٢٠٢٤م.

تاريخ استلام البحث: ٢٥/ ٠٢/ ٢٠٢٤م، تاريخ قبوله للنشر: ١٤/ ٠٥/ ٢٠٢٤م.

ملخص الدراسة

كان الوقف - ولا يزال - علامة بارزة في حياة الأمة الإسلامية، وفلسطين منذ الفتح الإسلامي لها، وهي وقف على المسلمين؛ كما نصَّ على ذلك الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ، ومن ثمّ صار الوقف صفة ثابتة في فلسطين لا ينفك عنها، والقدس أهم مدن فلسطين، وهي أكثر المدن قداسة في الإسلام بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن ثم حظيت بالاهتمام الأعمّ في مجال الوقف، وقد ساعد الحكام المسلمون على الوقف فيها، وشجعوه، فكان الوقف نمطًا متفردًا في صبغ المدينة بالصبغة الإسلامية عقب استردادها من الصليبيين، إذ استثمر صلاح الدين الوقف في تطوير عمران القدس، وتبعه أهل بيته الأيوبيون، ومن بعدهم المماليك في انتهاج نفس السياسة الحكيمة، فصارت القدس مقصدًا لمن يرمي إلى مجاورة الأقصى الشريف، فاتسعت البلدة القديمة في القدس عمارة وعمرانًا بفضل الله ثمّ بفضل الأوقاف، حتى غدت البلدة كلها بمثابة عمائر موقوفة تحيا بالوقف وتنعم به.

ومن هنا يهدف هذا البحث إلى إبراز أثر الوقف في تطور عمران القدس الشريف داخل أسوار البلدة القديمة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي.

كلمات مفتاحية:

القدس ـ العمارة الوقفية ـ صلاح الدين الأيوبي ـ المماليك ـ قناة السبيل ـ المدرسة الأشرفية.

Study Summary

The Impact of Endowments on the Urban Development of Al-Quds Al-Sharif During the Ayyubid and Mamluk Periods 567-922 AH/1174-1516 AD

Prepared by:

Dr. Mohamed Ahmed Malaka

Lecturer in the Department of Islamic Antiquities

Faculty of Antiquities, Cairo University, Egypt

Copyright and License information

© This research is published under the terms of the license (CC BY 4.0), which permits copying, distribution, and transmission of the research in any form, as well as adaptation, transformation, or addition for any purpose, including commercial purposes, provided that the work is attributed to its author, with a statement of any modifications made to it.

For citation: Malaka, Mohamed Ahmed, The Impact of Endowments on the Urban Development of Al-Quds Al-Sharif During the Ayyubid and Mamluk Periods 567-922 AH/ 1174-1516 AD, Waqf Magazine, Issue: 10, Muharram 1446 AH, July 2024 AD.

Article notes

Received February 25, 2024AD; Accepted May 14, 2024AD.

The endowment has been and continues to be a prominent aspect in the life of the Islamic nation and Palestine since its Islamic conquest. Palestine was endowed for Muslims, as stipulated by Caliph Omar, and thus, endowment became a permanent characteristic that cannot be separated from it. Jerusalem is the most sacred city in Islam after Mecca and Medina; therefore, it received significant attention in terms of endowment, gaining support and encouragement from Muslim rulers. After reclaiming Jerusalem from the Crusaders, the endowment had a unique role in shaping the city with an Islamic character. Salah al-Din invested endowments in its development, followed by his Ayyubid successors and later the Mamluks, who pursued the same wise policy. Consequently, Jerusalem emerged as a destination for those aspiring to be near the Al-Aqsa Al-Sharif. The ancient city of Jerusalem experienced extensive building and development, attributed to the blessings of

Allah then the endowments. As a result, the entire city became synonymous with endowed buildings, thriving and benefiting from endowment.

Therefore, the research aims to highlight the impact of endowments on the urban development of Al-Quds Al-Sharif within the walls of the ancient city during the Ayyubid and Mamluk periods.

Keywords:

Jerusalem - Endowment Architecture - Salah al-Din - Mamluks - Al-Sabil Channel - Al-Ashrafiyah School.

المقدمة

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

ازدهر عمران القدس عقب استردادها من الصليبيين بقيادة صلاح الدين، وأضحت مدينة ذات أهمية كبيرة، واستمر الأمر كذلك طوال العصر الأيوبي، ومن ثمّ حفلت بمآثر عمرانية ظلت شاهدة على عظمة هذا العمران، ومن ثمّ تدور إشكالية البحث حول السبب الرئيس في نشأة هذه العمائر، وهل كان للوقف إسهام في هذا العمران؟ وهل عرفتْ فلسطين والقدس الوقف قبل العصرين الأيوبي والمملوكي؟، وهل أثرت جغرافية المدينة على تطور عمرانها؟ وإلى أيّ مدى كان للوقف أثر في تطور العمران؟ وهل كان للوقف اقتصاديات مكنته من إنشاء هذا العمران؟ وهل اقتصر العمران في البلدة القديمة بالقدس خلال الحقبة الزمنية للدراسة على نمط معين من البناء دون آخر؟ أو في منطقة دون غيرها؟.

ولعلّ البحث بمشيئة الله تعالى يجيب عن هذه التساؤلات.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى استكمال دراسات الوقف والعمران في فلسطين تطبيقًا على القدس الشريف، وتناول قضية لا تزال راسخة في أذهان المسلمين ألا وهي القدس الشريف وأوقافها، ابتداءً من الفتح الإسلامي لها ووقف الخليفة عمر ﷺ لأرض فلسطين لا سيما القدس، مع التركيز على إبراز أثر الوقف في تطور عمران البلدة القديمة في القدس الشريف، وذلك من خلال استقراء اقتصاديات الوقف واستثماراته بذكر شواهد وثائقية للتدليل على أن الوقف كان له إسهام بارز في كل نواحي الحياة في المدينة، وكذا إبراز أهمية العمارة الأيوبية والمملوكية في تأكيد هوية القدس العربية الإسلامية، مع تناول أبرز سمات العمارة الأيوبية والمملوكية لا سيما في القدس وإسهاماتها الحضارية.

الدراسات السابقة للموضوع:

لم يطلع الباحث على دراسات سابقة حول أثر الوقف في تطور عمران البلدة القديمة في القدس الشريف، اللهم إلا في إشارات يسيرة تبدو في:

- مقال للدكتور «موسى سرور» بعنوان: دور الأوقاف الإسلامية في التنمية العمرانية في القدس، وهو مقال موجز من ٧ صفحات منشور في حوليات القدس، ملف القدس ١٤، خريف ـ شتاء ٢٠١٢م، تناول الفكرة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي حتى أواخر العصر العثماني دون تحليل أو تعمق أو التركيز على مدة تاريخية معينة.

وما عدا ذلك دارت الدراسات السابقة إما حول أحد المباني بسبب كونها وقفًا، أو حول عمران القدس دون إبراز لأثر الوقف في ذلك، أو لنماذج من العمائر الإسلامية أو حتى الأحياء مثل حي المغاربة، أو عن أوقاف المسلمين دون ربطها بالعمران، ومن ثمّ وجد الباحث حلقة مفقودة بين هذه الدراسات يرجو أن تستكملها هذه الدراسة، **ومن نماذج الدراسات التي تناولت موضوعات مما سبق:**

- عبداللطيف الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، ترجمة عزت جرادات، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، الأردن، ١٩٨١م، وهي من أبرز الدراسات، لكنها تقتصر على نماذج تاريخية لا سيما وقف أبي مدين، دون التطرق إلى رعاية الأوقاف لعمران القدس.
- يحيى وزيري: التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٤م، وهي دراسة مهمة، لكنها عامة من ناحية، ولم تبرز أثر الوقف في عمران القدس من ناحية ثانية.
- مروان أبو خلف، التطور العمراني لمدينة القدس في الفترة الإسلامية، مقال بمجلة جامعة القدس، العدد ١٨، ٢٠١٠م، وهو مقال جيد خصصه الباحث للحديث عن الحرم القدسي وأبوابه مع عدد من المنشآت الإسلامية عبر تاريخ القدس، دون إبراز للعمران المتضمن في عنوان البحث، وإنما ذكر المقال عددًا من الآثار المشهورة بالقدس ذكرًا مجملًا دون تفصيل أو إشارة لأثر الوقف.

- عثمان إسماعيل الطل، شوكت رمضان حجه، حجة وقف الأمير سيف الدين تنكز (المدرسة التنكزية)، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، مج ١٩، العدد الثاني، يونيو ٢٠١١م، وهي دراسة حضارية للوثيقة وما تضمنته من معلومات وأوقاف دون التطرق إلى عمارتها أو أثر الوقف في العمران.
- شريف أمين أبو شمالة، التطور العمراني والمعماري لمدينة بيت المقدس في صدر الإسلام (١٦ - ١٣٢هـ/ ٦٣٧ - ٧٥٠م) دراسة تاريخية تحليلية، وهي رسالة ماجستير غير منشورة، أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا، كوالالمبور، ماليزيا، ٢٠١٦م، وهي دراسة مهمة جدًا، لكنها تقتصر على العصر الأموي لا سيما منطقة الحرم الشريف، ولم تُعْنَ بإبراز الوقف.
- علي قليبو، المعالم المعمارية في القدس المملوكية، إصدار برنامج القدس لإعمار البلديات القديمة، مؤسسة التعاون للنشر، فلسطين، ٢٠١٩م، وهي من أبرز الدراسات؛ بكون الباحث تناول عمران المدينة في العصر المملوكي، غير أنها دراسة عامة لم تبرز أثر الوقف في هذا العمران.
- محمد أحمد ملكه، حضارية الوقف في العصر المملوكي «٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م» وأثرها على العصر العثماني، بحث بمجلة أوقاف في الكويت، العدد ٤٤، السنة ٢٣، ذو القعدة ١٤٤٤هـ/ يونيو ٢٠٢٣م، وهي من أبرز الدراسات التي تناولت الأوقاف المملوكية، ولكنها دراسة عامة، مع تركيز يسير على مدينة القاهرة.
- كما سجلت مؤخرًا سنة ٢٠٢١م رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة بعنوان: التطور العمراني للبلدة القديمة في القدس الشريف خلال العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) دراسة آثارية حضارية، لكنها لم تناقش بعد، ولعلها تستدرك جانب الوقف وأثره في هذا العمران، لا سيما بعد أن تقدم الباحث بطلب تعديل موضوع الرسالة إلى: دور الوقف في التطور العمراني للقدس الشريف خلال العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م).

منهج البحث

يتبع البحث المنهج التاريخي والأثري في وصف مفرداته وصفًا يثبت فكرة البحث الرئيسة، وهي إبراز أثر الوقف في تطور عمران القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، ومن ثمّ ينقسم البحث إلى مبحثين:

الأول منهما: يتضمن التعريف بالقدس الشريف، والوقف، وعلاقة الوقف بالقدس وفلسطين.

والثاني: في أثر الوقف في تطور عمران القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، بما في ذلك اقتصاديات الوقف وآثارها على التطور العمراني واستثمارات الأوقاف.

ويلي ذلك خاتمة البحث، ثم المصادر والمراجع.

النطاق المكاني والإطار الزماني للبحث:

يقتصر النطاق المكاني للبحث على البلدة القديمة في القدس الشريف، فيما يمتد الإطـار الزماني لما بين عامي ٥٦٧ - ٩٢٢هـ/ ١١٧٤م ـ ١٥١٦م، وهي السـنة التي ضمّ العثمانيون فيها الشام إلى حوزتهم، ومن ثمّ انتهى الحكم المملوكي في الشام والقدس وسيطرته عليها في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٤م.

المبحث الأول:

القدس بين التاريخ والجغرافيا والوقف الإسلامي

المطلب الأول:

نشأة القدس وأهميتها تاريخيًا وجغرافيًا

تتصف المدن ذات الأهمية الدينية غالبًـا بالفقر، وعدم وجود موارد طبيعية كبيرة فيها، كما تقع فى وديان غير ذات زرع غالبًا؛ وذلك لتظل بمنأى من الترف الذي يسبب هلاك القرى والمدن، ومن ثمّ كان الغالب فى تلك المدن أن تكون غير مرغوبة السكن

من أصحاب السطوة والمترفين، وغير مأثورة إلا من الراغبين عن الحياة الدنيا الحريصين على نعيم الآخرة[1]، ولم تخرج بيت المقدس عن هذه القاعدة طوال مراحلها التاريخية الإسلامية، لا سيما في العصرين الأيوبي والمملوكي، ومن ثم نجد أن أغلب من قطنها وهاجر إليها كان من المجاورين الباغين الأجر والثواب، ولهذا فاض فيها الوقف ليسد النقص الذي يسببه عزوف الأغنياء ونقص الخدمات فيها من ناحية، ولإكثار الخدمات المجانية من ناحية ثانية، هذا وقد تحكمت عوامل طبعيّة في مجريات أمورها الاقتصادية، وهو ما يظهر من موقعها الجغرافي.

والقدس لغة: تعني الطهارة، وهي - بضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الدَّالِ - جَبَلٌ مَعْرُوفٌ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَوْضِعُ الْمُرتَفِعُ الَّذِي يَصْلُحُ للزراعة، وَفِي كِتَابِ الأَمكنة: أَنه قَرِيس؛ قِيلَ: قَرِيس وقَرْس: جَبَلان قُرْب الْمَدِينَةِ، والمشهورُ المَرْوِيّ فِي الْحَدِيثِ هُوَ الأَوّل، وأَما قَدَس - بِفَتْحِ الْقَافِ وَالدَّالِ - فَمَوْضِعٌ بِالشَّامِ مِنْ فُتُوحِ شُرَحبيلِ بْنِ حَسَنة، والقُدُس والقُدْس - بِضَمِّ الدَّالِ وَسُكُونِهَا - اسْمٌ وَمَصْدَرٌ، وَمِنْهُ قِيلَ للجنَّة: حَضِيرة القُدْسِ، والتَقْدِيس: التَّطْهِير والتَّبْرِيك، وتَقَدَّس: أَي تطهَّر[2]، وَفِي قوله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[3].

يقول ابن حوقل في صفة فلسطين وبيت المقدس: «وفلسطين أزكى بلدان الشام، ومدينتها العظمى الرملة، وبيت المقدس تليها في الكبر، وهي مدينة مرتفعة على جبال يصعد اليها من كلّ مكان، يقصدها القاصد من فلسطين، وببيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته مسقّف في زاوية من غربيّ المسجد، ويمتدّ هذا التسقيف على نصف عرض المسجد، والباقي من المسجد خالٍ لا بناء فيه إلّا موضع الصخرة، فإنّ هناك حجرًا مرتفعًا كالدكّة عظيم كبير غير مستوٍ، وعلى الصخرة قبّة عالية مستديرة الرأس، قد غشّيت بالرصاص الغليظ السمك، وارتفاع هذه

(١) علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٩٠.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين حمد بم مكرم بن علي ت: ٧١١هـ، لسان العرب، حواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج٦، ص١٦٨.

(٣) سورة البقرة، من الآية (٣٠).

الصخرة من الأرض التي تُعرفُ بصخرة موسى تحت هذه القبّة إلى صدر القائم، وطولها وعرضها متقارب، وعليها حصار حائط ملوّح، ويكون نصف قامة، ومساحة الحجر بضعة عشر ذراعًا في مثلها، وينزل إلى باطن هذه الصخرة بمراق من باب يشبه السرداب إلى بيت يكون طوله نحو خمسة أذرع في عشرة، لا بالمرتفع ولا بالمستدير ولا بالمربّع، وسمكه فوق القامة، وليس ببيت المقدس ماءٌ جارٍ سوى عيون لا ينتفع الزروع بها، وعليها شجيرات، وهي من أخصب بلاد فلسطين على مرّ الأوقات، وفى سورها موضع يعرف بمحراب داود النّبيّ عليه السلام، وهو بنية مرتفعة ارتفاعها نحو خمسين ذراعًا من حجارة، وعرضها نحو ثلاثين ذراعًا بالحزر، وبأعلاه بناء كالحجرة[1] وهو المحراب الذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[2]».

والبلدة القديمة في القدس هي حدود البلدة إيلياء القديمة، وأهم أجزائها هو الحرم الشريف الذي يضم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، مع فضاء واسع أكسبهما بريقًا خاصًا، ويدخل ضمن نطاق البلدة العتيقة أو القديمة المناطق القريبة المحيطة بالبلدة، وتمتد من السفوح الشرقية لجبل الزيتون شمالًا، وتشمل وادي الجوز ومنطقة باب الأسباط وسلوان؛ لتصل إلى حي الفاروق على السفوح الشمالية لجبل المبكر[3].

وتحظى القدس بموقع جغرافي مهم (شكل: ١) إذ تقع على مجموعة تلال مرتفعة[4]، وقد حظيت القدس بمكانة عظيمة وتشريف كبير؛ لما تميزت به من بُعد روحي، وعلى الرغم مما أصابها من حروب ونكبات إلا أنها استمرت ولا تزال، وكان قد دخلها الفتح الإسلامي على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، وتسلّمها الخليفة عمر رضي الله عنه بنفسه، وتتبوأ القدس على عدد من المدن الأخرى مكانة دينية كبيرة، وذلك قبل الفتح الإسلامي وبعده، ويمثل الارتباط بها أحد المضامين العقدية والتعبدية في حياة المسلمين استنادًا

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت: بعد ٣٦٧هـ)، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م، ج ١، ص ١٧١.

(٢) سورة ص، الآية (٢١).

(٣) مرسال، أميرة، استراتيجية الحفاظ على الهوية المعمارية العربية بالقدس، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، ع ١٨، ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٤) شراب، محمد محمد، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دراسة تاريخية موثقة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م، ص ٤٤.

شكل (١): خريطة تظهر تلال وأودية القدس بتوزيعها، وتظهر سور البلدة القديمة)[١]

إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حيث علو المكان وشرف المكانة، لهذا يعدّ الارتباط بالقدس ارتباطًا روحيًا ووجدانيًا، ومما ذكر في حقها قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[٢].

وإذا وضعنا في الاعتبار طبيعة تلك المنطقة الصخرية التي تقع فيها المدينة التي يصفها ياقوت الحموى بقوله: «أرضها وضياعها كلها جبال شامخة، وليس حولها ولا بالقرب منها أرض البتة... وأما المدينة نفسها فهى على فضاء فى وسط الجبال وأرضها كلها من حجر الجبال التي هي عليها»[٣]، ندرك مدى تأثير العوامل الطبيعية

(1) Hopkins, Ian. W. J., Jerusalem a study in urban Geography, Baker Book House, Michigan, USA, 1970, p. 36.

(٢) سورة الإسراء، من الآية (١).

(٣) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله (ت: ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦م، ج ٥، ص ١٦٨.

فى حياتها الاقتصادية، من قلــة الأراضى الزراعية وقلة الميــاه حيث لا توجد فيها أنهار، وقد كان للعوامل الطبيعية فى تلك المنطقة الجبلية أثر كبير فى أحوال القدس المناخية، فطقســها حار جاف متوســط الرطوبة، مما جعل له تأثيــر كبير فى نوع النباتات التي تزرع بها، كذلــك كان لموقع المدينة أثر كبير في ظروفها المناخية، وأما الرياح فقد تعرضت المدينة تقريبا لكل أنــواع الرياح عند هبوبها مثل الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية في فصل الشتاء، وكذلك الشرقية والجنوبية التي كثيرًا ما يســتمر هبوبها ما بين يوم وثلاثة أيام وأحيانًا مُددًا أطول، وغالبًا ما تكون محملة بالرمال والأتربــة، التي يمكن أن تقتلع الأشــجار، وتحمل معها كل ما يمكن تحريكه، فضلًا عما كان ينتج عن ذلك من اضطراب في كمية ســقوط الأمطار، وما كان يؤدى إليه من تأثير على حاصلاتها الزراعية[١].

وتؤكد المصادر التاريخية من العصر المملوكي أثــر الرياح والأمطار على الأحوال الزراعية والاقتصادية عامة في القدس، من ذلك ما يرويه الرحالة سيجولى الذي زارها ســنة ١٣٨٤م، في حديثه عن الأمطار، أن الســماء إذا أمطرت فإن الشوارع تبقى جافة بسبب انحدارها الشديد، وأن المدينة بوجه عام كانت ذات أرض مجدبة وفقيرة المياه[٢].

ويؤكد «مجير الدين العليمي» ندرة سقوط الثلج في المدينة في سياق حديثه عن سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م بقوله: «وفيها في يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول الموافق السابع كانون الثانى وقع الثلج بالقدس الشريف، واســتمر ينزل من ظهر الثلاثاء إلى عشية الخميس مستهل ربيع الآخر ليلًا ونهارًا حتى امتلأت الشوارع والأسطحة والأماكن، وحكى الكبار أنهم لم يروا مثل ذلك في هذه الأزمنة من نحو سبعين سنة... وَاسْتمرّ فِي شوارع الْقُدس أَكثر من عشْرين يَوْمًا، وَاشْتَدَّ حَتَّى صَار كالحجارة، ثمَّ وَقع البرد الشَّديد بعد وُقُوع الثَّلج بِنَحْوِ خَمْسَة عشر يَوْمًا حَتَّى جمد المَاء، وَصَارَ جليدًا[٣].

(١) علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ص١٩٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩١.

(٣) العليمي، مجير الدين (ت: ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ـ الأردن، د.ت، ج٢، ص٣٦٨

ورغم أهمية القدس لدى الشـرائع السماوية الثلاث، إلا أنه قد اجتمع أيضًا للقدس في الإسلام ما لم يجتمع لها من قبلُ، ليس فقط في القدسية الدينية، وإنما حتى في تنوع السكان، إذ تسرب النصارى بَعدَ الفَتحِ العُمريِّ لِلعَيشِ في القُدسِ بَسبَب تَسَامُحِ المُسلِمِينَ، ومن ثمّ اجتمع للقدس من أوضاع متشـابكة خاصة بها ما لم يجتمع لأية مدينة من مدن الإسلام[١]، والحديث حول فضائل بيت المقدس يطول إذ لا تحصيه دراسة واحدة[٢].

المطلب الثاني:
الوقف والقدس

الْوَقْفُ لُغَةً: الْحَبْسُ وَالْمَنْعُ، وَفِيهِ لُغَتَانِ؛ أَوْقَفَ يُوقِفُ إِيقَافًا، وَوَقَفَ يَقِفُ وَقْفًا، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[٣].

وَفِي الشَّـرِيعَةِ: عِبَارَةٌ عَنْ حَبْسِ الْمَمْلُوكِ عَنْ التَّمْلِيكِ مِنْ الْغَيْرِ[٤]؛ فهو يقوم إذًا على حبس أصلٍ مدرٍ للدخل والمنافع المستمرة، وهذا يتحقق بالإدارة الجيدة التي من أهم وظائفها الرقابة المستمرة للتأكد من أن أساليب وإجراءات العمل تحقق الأهداف المرجوة من الوقف، ولهذا ظهرت دواوين الأوقاف منذ عصر الخلافة العباسية.

(١) الواسـطي، أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد، فضائل البيت المقدس، تحقيق: عصام محمد الشـنطي، طارق عوض الله محمد، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية ـ نيقوسيا ـ قبرص، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص١٠١.

(٢) إذ ألفت دراسـات عدّة عـن فضائل بيت المقدس قديمًا وحديثًا، ومن أبرز تلك الدراسـات على سـبيل المثال لا الحصر؛ فمع دراسة الواسطي:

ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الديـن (٥٠٨ - ٥٩٧هـ)، فضائل بيت المقدس، تحقيق: أبي المنذر الحويني عمرو بن عبدالعظيم بن نيازي شريف، مكتبة الإمام البخاري للنشـر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م؛ المقدسي، ضياء الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد (ت: ٦٤٣هـ)، فضائل بيت المقدس، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، سوريا، ط١، ١٤٠٥هـ.

(٣) سورة الصافات، الآية (٢٤).

(٤) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة (ت: ٤٨٣هـ)، المبسوط، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت، ج١٢، ص٢٧؛ برهان الدين المرغيناني، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبدالجليل الفرغاني (ت: ٥٩٣هـ)، الهداية في شرح بداية المبتدي، تحقيق: طلال يوسف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٣، ص١٥؛ سابق، السيد، فقه السـنة، الفتح العربي للإعـلام، ط١٠، ج٣، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٣٠٧؛ حسـن، نوبي محمـد، قيم الوقف والنظرية المعماريـة ـ صياغة معاصرة، بحث بمجلة أوقاف، تصدر عن الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، السـنة الخامسة، العدد ٨، ربيع الأول ١٤٢٦هـ/ مايو ٢٠٠٥م، ص١٦.

والوقف كيان إسلامي يضمن استمرارية الإنفاق والنفع، وهو مظهر للحب والشفقة والرحمة من الخالق ﷻ إلى المخلوقات بتشريعه في الإسلام، ويعبر عنه أيضًا بأنه: «إنفاق المال في سبيل الله ﷻ واستخدامه من أجل غاية معنوية أبدية تمنع التمليك التملك»[1].

وقد كان الفتح الإسلامي لفلسطين عمومًا أمرًا خاصًا، إذ رأى الخليفة عمر رضي الله عنه بثاقب بصره جيلًا قادمًا من المسلمين سيزداد عدده ومتطلبات حياته مع مضي الزمن، ومن ثمّ دعت الحاجة إلى ضبط التشريع الذي يقع على هؤلاء المنتظرين، ومن ثمّ تراجع خطوة عن العرف السائد آنذاك بتوزيع الفيء على الفاتحين؛ بكون الأمر بات مختلفًا مع اتساع حركة الفتوحات الإسلامية، إذ حدث بعد فتوح الشام، ومنها فلسطين، أنْ صارت حقًا للفاتحين توزع على الجند، فيما يخرج خمسها في مصارفه تطبيقًا لقوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقد جعل الخليفة عمر رضي الله عنه أرض فلسطين كلها وقفًا للمسلمين على تعاقبهم، وذلك بكون أرضها من أرض الشام الذي فُتح غالبه عنوة إلا مدن قليلة كالقدس، وروى الطبري عن محمد بن سيرين أن «البلدان كلها أخذت عنوة إلا حصون قليلة، عاهدوا قبل أن يُنزلوا»، ورُوي أن طائفة من الذين شاركوا بالفتح سألوا أن تقسم الأرض بين الفاتحين[3]، وطرحت المسألة بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشاور

(١) طوباش، عثمان نوري، العثمانيون ـ رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، ترجمة: د. محمد حرب، مراجعة وتصحيح: محمد أوقومش، دار الأرقم للطباعة والنشر، إستانبول، ٢٠١٦م، ص ٥٩٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية (٤١).

(٣) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق» تهذيب عبدالقادر بدران»، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص١٥٨؛ أبو يوسف، إبراهيم يعقوب (ت ١٨٣هـ/٧٩٦م)، الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص ٨٤ - ٨٥؛ خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دار طلاس للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٧م، ص ٢٩٤.

أصحابه في وقف أرضها للمسلمين، فانقسم أهل الرأي من الصحابة بين مؤيد لقسمتها وبين معارض لها، وذكر أن عمر بن الخطاب ﷺ كان على رأس الفريق المعارض للقسمة، ووصفته بعض الروايات بأنه صاحب الفكرة حيث تبناها وأدار الشورى على أساسها، إذ إنه أمر جديد على الأمة في ذلك الوقت ولمخالفته لقانون متعارف عليه بين المسلمين من تقسيم الغنائم كما ورد في القرآن الكريم على الفاتحين، ولما شاورهم عمر ﷺ في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام تكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم فيما فتحوا، فقال عمر ﷺ: «فكيف بمن يأتي من المسلمين، فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأي»، فقال له عبدالرحمن بن عوف ﷺ: «ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم»، فقال عمر ﷺ: «ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل - أي مكاسب كثيرة أو فائدة كبيرة - بل عسى أن يكون كلّا - أي فائدة - على المسلمين»[1].

وورد أيضًا أنهم ألحّوا على عمر ﷺ، وقالوا: «أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول: إنه يرى ذلك. قالوا: فاستشر، فاستشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا، فأما عبدالرحمن بن عوف ﷺ فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم، وكان رأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر ﷺ على رأي عمر ﷺ، فأرسل إلى عشرة من الأنصار؛ خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج، من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله، وأثنى عليه ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم؛ فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني مَنْ خالفني، ووافقني مَنْ وافقني، وليس أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي؛ معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق. قالوا: قل نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٨؛ خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص٢٩٥.

حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ... وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيهـــا الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون فيئًا للمسلمين ... فقالوا جميعًا: الرأي رأيك؛ فنعم ما قلت وما رأيت»[(١)].

رُوي أن أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين أرادوا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقســم الشام كما قســم رســول الله ﷺ خيبر، وأنه كان أشــد الناس علمًا في ذلك الزبير بــن العــوام وبلال بن ربــاح رضي الله عنهما، فقال عمــر رضي الله عنه: «إذن أترك مَنْ بعــدكم من المسلمين لا شيء لهم، ثم قال: اللهم اكفني بلالًا وأصحابه»[(٢)]، واستطاع أن يتخذ قراره باعتبار الأرض وقفًا على الأمة كلها، وقرر بقاءها بيد أهلها الأصليين على أن يدفعوا مقابل ذلك ما تقرر عليها من خراج[(٣)]، ومما ورد عنه أيضًا قوله رضي الله عنه: «ولكني أحبسه فيما يجري عليهم وعلى المسلمين»[(٤)]. وبهذا تكون أرض فلسطين قد وقفت على مصالح المسلمين منذ فتحها ودخولها في الإسلام.

ويبدو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد بوقفه للأرض على الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة الحفاظ على وحدتها وهويتها الإسلامية وإبراز المسؤولية الجماعية للأمة في الحفاظ على الأرض وتحصينها من أن تكون عرضة للمســاومة الفردية وتنازل الفرد عنها للآخرين، وهو عمل من شأنه أن يجعل الهوية الإسلامية للأمة والأرض

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٨؛ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية الكويتية، ط٢، دار السلاسل، الكويــت، ج١٩، ص٥٦؛ الزحيلي، وهبة بن مصطفى، الفقه الإســلامي وأدلته (الشــامل للأدلة الشــرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)، دار الفكر، ســورية، دمشــق، ط٤، ج٦، ص٤٦٠٢.

(٢) المظهري، محمد ثناء الله، التفسير المظهري، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، ١٤١٢هـ، ج٤، ص٩٢.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص٢٣ - ٢٥.

(٤) الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي ت: ٢٢٤هـ، كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص٧١؛ ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي ت: ٧٩٥هـ، الاســتخراج لأحكام الخراج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٣٩.

سواء بسواء، لذا أراد عمر ﷺ بتحويله الأرض المفتوحة عنوة إلى أراضي وقفية إظهار وحدة الأمة من خلال تمسكها بالأرض وإرجاع تلك المسؤوليّة عن الأرض لجماعة المسلمين بأكملها دون وضع هذه المسؤوليّة بيد فرد أو جيل يمكن لهم استغلال هذه المسؤوليّة فيما بعد والتلاعب بها، وأيضًا التلاعب بمصير الأمة بأجمعها، وطمس هويتها، وذلك من باب مسؤوليته وأحقيته بالتصرف بتلك الأرض، فلو أن فردًا أو جيلًا تقاعس وفرط بالأرض فيذهب بوزره، ولكن الأمة الإسلامية بمجموعها لن تجتمع على ضلالة، فتفرط بهذا الأمر، بل ستدافع عن أرض الجهاد والرباط بكل ما تستطيع، ولن تبخل عليها بدم أو جهد، ويُضاف إلى ذلك أن عمر ﷺ بقراره لم يكن قرارًا فرديًا؛ إنما جاء هذا القرار نتيجة للنقاش والحوار والحِجاج الذي جرى بين الصحابة في عصره، وهذا بمثابة قانون أقرّه الخليفة عمر ﷺ وصحابته الكرام ﷺ، وأخذ به الخلفاء الراشدون من بعده والأمويون والعباسيون في إدارة هذه الأراضي، ولذلك تبقى المرجعية في الإبقاء على أرض العنوة أرضًا خراجية ووقفًا على المسلمين هو الحكم الذي أُتخذ أيام عمر بن الخطاب ﷺ، وأُقرَّ من قبل الخلفاء من بعده طوال العهد الإسلامي، ومن ثم شملت فلسطين بالقرار استتباعًا، فالقرار متعلق بأرض العنوة بعامة وفلسطين جزء منها، فتكون داخلة في ما دخلت فيه أرض العنوة، ولا توجد رواية تستثنيها، فيكون ما أُتخذ بحق الأرض العنوة يشمل أرض فلسطين أيضًا، ويبدو هذا واضحًا من خلال المقادير الخراجية التي كانت فلسطين تدفعها لبيت مال المسلمين في عهد كل خليفة طيلة العهد الإسلامي، وبما أن أرض فلسطين داخلة في الأرض التي فتحت عنوة فتكون داخلة بالقرار الذي اتخذه عمر بن الخطاب ﷺ وصحابته ﷺ ضمنًا، أي أصبحت أرضًا خراجية وقفًا على الأمة الإسلامية[1].

(١) شاهين، رياض، أرض فلسطين وقف إسلامي من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الإسلامية، مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠٠٧م، بحث منشور على الرابط الإلكتروني:
http://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?itemid=5740#.Y0hzAT1BzIU
الاطلاع الساعة ٩: ٣١، بتاريخ ٦/ ١١/ ٢٠٢٢م.

المبحث الثاني:

أثر الوقف في تطور عمران البلدة القديمة في القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي

يتناول هذا المبحث أثر الوقف في التطور العمراني للبلدة القديمة في القدس الشريف، مع التدليل على اقتصاديات الوقف وأثرها في الأنشطة الاقتصادية التي كانت أنشئت بمال الوقف أو برعايته، من زراعة وتجارة وصناعة بالقدس الشريف لبيان اقتصاديات الوقف، ومن ثم الدلالة على وجود الوقف في الأنشطة الاقتصادية بما سمح بإقامة نشاط عمراني كبير.

المطلب الأول:

اقتصاديات الوقف في القدس

تتمثل الأنشطة الاقتصادية في ثلاثة محاور يرتبط بعضها ببعض بشكل كبير، وهي الزراعة والصناعة والتجارة، إذ كان الإنتاج الزراعي هو المسيطر في بلدان العالم القديم شرقًا وغربًا خلال العصور الإسلامية التاريخية وما قبلها، ولا يزال النشاط الزراعي من أهم الأنشطة الاقتصادية التي تضمن البلدان بها استقلالها عن الضغوط الخارجية، ومن ثمّ كان الاستثمار الزراعي على درجة كبرى من الأهمية؛ لكونها تسد حاجة السكان من ناحية، ولكونها إسهامًا من مؤسسة الوقف في المشاركة المجتمعية من ناحية ثانية، وبمثابة الراعي الأول لعمارة الأوقاف المعمارية وغيرها من ناحية ثالثة، إذ إن غالب أراضي القدس الزراعية كانت وقفًا على منشآت معمارية وقفية في البلدة القديمة، وتعكس لنا مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف أهمية الاستثمار في هذا المجال، منها الوثيقة ذات الرقم ٦٤٠ بتاريخ ٧ من ذي القعدة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م (شكل: ٢)، التي تذكر ثلاثة أشخاص من قرية بيت سوسين (سسين) التابعة لمدينة لُدّ قد قاموا باستئجار جميع أراضي بيت المال والأوقاف الموجودة في الناحية المذكورة مدة عشر سنين متواليات، وأن الأجرة عن كل سنة في المدة المعينة أعلاه من الدراهم

معاملة دمشق المحروسة ألف درهم وسبعمئة درهم»[(١)]، وجاء نص الوثيقة من أحد عشر سطرًا تبدأ بالبسملة، وتنتهي بتاريخ الوثيقة، فيما جاءت الإشهادات والتواقيع عقب ذلك بمحاذاة السطر الأخير وأسفل منه، وكان النص كالتالي:

١. بسم الله الرحمن الرحيم...

٢. أشهد عليه سيدنا ومولانا المقر الكريم العالي المولوي المالكي المخدومي الشهابي أحمد اليغموري الظاهري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة المعظمة.

٣. بالقدس الشريف أعز الله أنصاره أنه أجّر كل واحد من «محمد بن عمر بن سلام» و«أحمد بن نوار بن موسى» و«صالح بن محمد بن مسعود» الثلاثة من أهل قرية سسين[(٢)] من عمل.

٤. لد المعمورة الحاضرون يومئذ بالقدس الشريف، فاستأجروا من المقر المشار إليه أعلاه دام الله تعالى أيامه جميع بياض[(٣)] أراضي الناحية المذكورة.

٥. أعلاه ويشتمل على سهل ووعر وأقاصي وأداني وصير[(٤)] ومباني، ودمنة[(٥)] عامرة برسم سكنى فلاحيها وشهرتها في مكانها تغني عن تحديدها إجارة شرعية.

---

(١) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، نشر بدعم الجامعة الأردنية، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٥م، ج٢، ص٦٢.

(٢) ذكر العسلي أنه كانت في ناحية الرملة في القرن ١٠هـ/١٦م قرية تدعى سوسين، وكان يقطنها في ذلك القرن ٥٦ عائلة، وكانت القرية موجودة زمن الانتداب البريطاني، ولعلها المذكورة في النص.

انظر: العسلي، وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٢، حاشية رقم (٢).

(٣) البياض من الأرض ما لا عمارة فيه.

انظر: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٨، ص٢٣٦.

(٤) جمع صيرة، وهي الحظيرة.

الصِّيارةُ والصِّيرةُ حَظِيرةٌ من خَشَبٍ وحجارةٍ تُبْنَى للغَنَمِ والبَقَرِ، والجمعُ صِيرٌ وصِيَرٌ، وقيل: الصِّيرَةُ: حَظِيرةُ الغَنَمِ، قال الأَخْطَلُ:

واذكُرْ غَدَاتَةَ عِدَّانًا مُزَنَّمَةً ... من الحَبَلَّقِ تُبْنَى حَوْلَها الصِّيَرُ

ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج٨، ص٣٦١.

(٥) جمعها دِمَنٌ، والدمنة: آثار الناس وما سودوا، أي عمروا، ويعني هذا من الأرض عامرة بما عليها من دور وغيرها من المنافع العامة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١٥٧.

٦. مشتملة على الإيجاب والقبول الشرعيين مدة عشر سنين كاملات عربيات هلاليات متواليات الشهور والأعوام أو المدة يوم تاريخه.

٧. وآخرها انقضاؤها لينتفع المستأجرون بالعين المؤجرة الانتفاع الشرعي بأجرة مبلغها عن كل سنة من المدة المعينة أعلاه من الدراهم معاملة دمشق المحروسة ألف درهم.

٨. وسبع ماية[١]،..... درهمًا يقوم المستأجرون بأجرة كل سنة في آخرها ويسلم المستأجرون العين المؤجرة أعلاه بالتخلية الشرعة.

٩. يسلم مثله وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية وهم متضامنون متكافلون على الأجرة المعينة أعلاه..... أقر كل واحد.

١٠. منهم أنه قادر مليّ بما عليه وبما يضمن وكفل وقبل الأجر المشار إليه أعلاه عند الكتابة بمجلس العقد قبولًا شرعيًا وأشهد عليهم في سابع شهر ذي.

١١. القعدة الحرام من شهور سنة ست وتسعين وسبعماية ..... الإشهادات .....

كذلك استأجر شخصٌ من أبناء بيت المقدس يدعى «صدر الدين عبدالرحيم المعري» بمفرده ثلاث قطع زراعية في أرض البقعة ظاهر القدس الشريف، وتحدد الوثيقة مدة الإيجار بثلاثين سنة تبدأ من سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، وتبلغ قيمة الإيجار لكل سنة كانت ستة وسبعين درهمًا، بما يشير إلى أن أراضي الوقف كانت تؤجر لمدد طويلة بقيمة إيجارية ثابتة[٢].

وقد كانت أسواق بيت المقدس من أبرز المراكز التجارية في ذلك العصر؛ لما شهدته البلاد من نمو سكاني كبير، ووصف الرحالة «كازولا» أسواق بيت المقدس قائلًا:

(١) قرأها العسلي تسع ماية، ولكنها أقرب إلى سبع ماية منها إلى تسع ماية، وذلك اعتمادًا على تأخر نبرة حرف الباء إلى ما بعد السين. والله أعلم.

(٢) باعامر، محمد سالم بكر، أنماط الاستثمار في مدينة بيت المقدس عصر سلاطين المماليك: دراسة وثائقية، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع٦٦، يناير ٢٠١٣م، ص٥٠١.

شكل (٢): وثيقة باستئجار جميع أراضي بيت المال والأوقاف بقرية سوسين، عن (العسلي، وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٣)

«ومما أدهشني حقًا مشاهدة تلك الأسواق، فهي طويلة، في هيئة شوارع مسقوفة تمتد إلى مسافات بعيدة، وعلى الجانبين ترى الدكاكين مليئة بالسلع والبضائع المختلفة، والتي كان الناس يقبلون على شـرائها[١]، وقد كانت هذه الدكاكين تستخدم في المبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء، مع اسـتخدام بعضها مراكز للصناعة مثل صناعة الغزل والدباغة والصباغة وصناعة الأحذية والملابس، والصاغة والصابون وغيرها من الصناعات[٢].

على أن وجه الأهمية يأتي فيما تلقيه مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف من معلومات جديدة على بعض أنماط الاسـتثمار التجاري في تكوين الشراكات في ذلك

(1) Newett, Margret: Conon Pietro Casala's Pilgrms to Jerusalem in the year 1494, London, 1907, P. 251.

(٢) زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٤٣م، ص٢٤٩؛ الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣ - ١٥١٦م)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م، ١٥٠.

العصر للتجارة في مال الوقف واستثماره، فالوثيقة ذات الرقم ٤٨ بتاريخ ١٢ صفر ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، تفيد أن شخصين من قرية نحالين الواقعة شمالي الخليل من أعمال القدس الشريف قد كوّنا فيما بينهما شركة مفاوضة، أي أن يفوض كل واحد من الشريكين إلى صاحبه التصرف في ماله في غيبته وحضوره، وربما تساويا في رأس المال، وذلك للاتجار في المحاصيل الزراعية وبيعها، وأنهما في التاريخ المذكور وهو تاريخ الوثيقة قاما بشراء المحاصيل الزراعية الخاصة بالأرض الموقوفة على ديوان الخليل إبراهيم عليه السلام في القرية المذكورة عاليه بمبلغ ستة آلاف درهم، وتعهدا بدفع ذلك المبلغ بعد سبعة أشهر من تاريخ الشراء المذكور وهو تاريخ الوثيقة، وفي ذيل الوثيقة جاء توقيع الشهود على ذلك[١]، كما أن الوثيقة ذات الرقم ٤٥٩ المؤرخة في ١٨ من شهر الله المحرم سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م تؤكد قيام نوع آخر من الشركات المتضامنة بشكل واضح تمامًا، حيث جاء فيها أن اثنين من قرية عين عريك التابعة للقدس، وهما عبدالله بن محمد بن سلمان، وإسماعيل بن أحمد بن عمر قد كوّنا شركة لشراء المحاصيل الزراعية بالقرية المذكورة في وقف الحرم القدسي الشريف، وكانت المحاصيل من العنب، واللوز، والتين، وأنهما اشتريا هذه المحاصيل بمبلغ ٤١٠ درهمًا بينهما بالسوية، وأن كل واحد منهما «ضامن وكفيل لما في ذمة صاحبه بالحصة له في ذلك وفي الأداء عنه والرجوع عليه ضمانًا صحيحًا شرعيًا». وفي ذيل الوثيقة توقيع شاهدين[٢].

وقد حظيت المعاملات على محاصيل أراضي الوقف بالمرونة التي تسمح في بعض الأوقات بتأجيل سداد السعر لأجل معلوم، ويتحول الثمن إلى دين على المشتري يلزم سداده، ومن هذا وثيقة مؤرخة بالسابع عشر من ذي الحجة سنة ٧٠٦هـ (شكل: ٣)، تتضمن إقرارًا بدين لمستحقي وقف الحرم الشريف بما قدره تسعمئة وخمسين درهمًا عن ثمن الكرم والتين والتفاح وغيره من الفواكه، وهي وثيقة من سبعة عشر سطرًا تبدأ بالبسملة، وتنتهي بالتاريخ، وتلي ذلك الإشهادات والتواقيع.

(١) العسلي، وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٨.

(٢) باعامر، أنماط الاستثمار في مدينة بيت المقدس، ص٥٠٦.

شكل (٣): وثيقة بدين على المشتري لمستحقي وقف الحرم الشريف[١]

(١) العسلي، وثائق مقدسية، ج ١، ص ٢٥٩

١. « بسم الله الرحمن الرحيم

٢. أقر كل واحد من محمد بن زكري بن مفلح، وعبدالله بن

٣. محمد بن سليمان، وإسماعيل بن أحمد بن عمر، من أهل قرية عين

٤. عريك[١] وقف الحرم الشريف المقدس إقرارًا شرعيًا طوعًا

٥. واختيارًا في صحة منهم وسلامة وجواز أمر أن عليهم

٦. وقبلهم وفي ذمتهم لمستحقي وقف الحرم الشريف

٧. ما مبلغه من الدراهم الفضة الجيدة الوازنة المتعامل

٨. بها يومئذ تسعماية درهم وخمسون درهمًا (والنصف)

٩. أربع ماية درهم وخمسة وسبعون درهمًا دَيْنًا مؤجلًا

١٠. يحل عليهم سلخ ربيع الأول سنة سبع وسبعماية

١١. أقر كل واحد منهم أنه كفل المبلغ المذكور عن صاحبه

١٢. المقر معه بالذمة له في ذلك وفي الأداء عنه كفالة صحيحة

١٣. شرعية، أقر كل واحد منهم أنه ملي بما عليه وما كفله

١٤. والمبلغ المذكور عن ثمن الكرم والتين والتفاح

١٥. ..... والمشمش والجوز، لمغل سنة خمس وسبعماية

١٦. المدرك في سنة ست وسبعماية وبذلك شهد عليهم

١٧. في سابع عشر الحجة سنة ست وسبعماية.

أشهد عليهم بذلك.....»[٢].

على أن التساهل في تأجيل أداء أثمان الزروع لم يكن هدرًا لمال الوقف، وإنما كان مراعاة لظروف التجارة في بعض الأوقات، وبما يضمن تعاهد حفظ مال الوقف الخاص

(١) تقع جهة الغرب من مدينة رام الله، وأقرب قرية لها قرية (ين قينيا)، وكان عدد سكانها سنة ١٩٤٥م نحو٦١٠ من العرب، وبلغ في إحصاء سنة ١٩٦١م نحو ١٣٨٥، وذكرها الفرنجة باسم Beth Arik.
مصطفى، بلادنا فلسطين، دار الهدى ـ كفر قريع، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٩١م، ج٨، قسم ٢، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، ج ١، ص ٢٥٩.

بالقــدس واقتصادياته، وورد فــي وثيقة مؤرخة بالثالث عشــر من رجب ســنة ٧٠٧هـ (شكل: ٤) ما يتضمن تعهدًا لحسن سلوك في أرض الوقف، ونصها في خمسة عشر سطرًا، تبدأ بالبسملة، وتنتهي بالشهود:

شكل (٤): وثيقة تتضمن تعهدًا لحسن سلوك في أرض الوقف[١]

(١) العسلي، وثائق مقدسية، ج ٢، ص ٦٥

١. « بسم الله الرحمن الرحيم

٢. حضر إلى شهوده يوم تاريخه الفلاحين: عباد بن خالد بن رواع

٣. وماجد بن سعيد بن مصطفى، وخلف بن رزق الله بن يحيى العامري

٤. من أهل نوبا، من عمل مدينة الخليل عليه السلام ، وهم معروفون، وأشهدوا

٥. على أنفسهم في صحة منهم وسلامة وجواز أمرائهم، أقسموا بالله تعالى وبالقسامة

٦. الشريفة شرفها الله تعالى أنهم لا يقيموا فسادًا في القرية

٧. الجارية في وقف الصخرة الشريفة ولا في غيرها، وأنهم لا

٨. يمشوا في فساد وأن يسلكوا الطرايق الحميدة والمناهج

٩. السديدة، ومتى ما جرى منهم فساد أو سعى أحد

١٠. منهم في فساد كان عليهم بطريق النذر لبيت

١١. المال المعمور ألف درهم، وبه وقع الإشهاد

١٢. عليهم في ثامن عشر رجب الفرد سنة سبع وسبعماية

١٣. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وسلامه

١٤. أشهد بمضمونه أشهد عليهم بذلك.

كتبه محب الدين بن يحيى كتبه شهاب الدين يحي بن....[١].

فيما تضمن ظهر الورقة (حجة أهل نوبا وقف..... صخرة القدس الشريف)»[٢].

وورد في وثيقة أخرى برقم ٣٤٨ في ١٧ من ذي الحجة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م أن ثلاثة أشخاص من قرية عين عريك أيضًا، وهي تابعة للقدس - كما سبق القول - قد كونوا شركة، وقاموا بشراء غراس أرض من قريتهم موقوفة على الحرم القدسي الشريف في شكل عنب وتين وتفاح ومشمش وجوز، وكتبوا على أنفسهم إقرارًا بدفع المبلغ المطلوب،

(١) العسلي، وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٤.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٤.

وهو تسعمائة وخمسون درهمًا بعد ثلاثة أشهر، وأقر كل واحد منهم أنه كفل المبلغ المذكور عن أصحابه المقر لهم بالذمة في ذلك، وفي الأداء عنهم كفالة صحيحة شرعية. «وفي ذيل الوثيقة توقيع ثلاثة من الشهود على ذلك[١].

والحق أن الارتباط بين الحالة التجارية للقدس وبين نواحي الحياة المختلفة من زراعة وصناعة وأمن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالوقف، إذ شهد العصران الأيوبي والمملوكي نشاطًا ملحوظًا في مجال الحياة العمرانية في القدس، وتظهر نتيجة ذلك في بناء كثير من المدارس والزوايا وغيرها من المؤسسات الخيرية، فضلًا عن أن الأوقاف التي أوقفت على تلك المنجزات كانت موردًا مهمًا من الموارد الاقتصادية لهذه المدينة، مما كان له أكبر الأثر في انتعاش الأحوال الاقتصادية في المدينة نتيجة الرواج الاقتصادي الذي عمّ المدينة جراء اشتغال كثير من أبنائها في أعمال البناء والترميم والإصلاحات، فضلًا عن قطع الأحجار من المحاجر، هذا مع أن الأحوال الزراعية كانت مشجعة تمامًا، مما أدى إلى ازدهار التجارة، وخاصة في الزيتون والصابون والسكر وغيرها من الحاصلات الزراعية[٢].

وإذا كانت غالبية النماذج السابقة من العصر المملوكي، إلا أن البدايات الحقيقية للرواج الاقتصادي في القدس بدأ منذ تحريرها على يد صلاح الدين، ولكن ثمارها ظهرت في العصر المملوكي، إذ أدت إصلاحات صلاح الدين إلى انتعاش حركة التجارة في البلاد إثر الفتح الصلاحي، حتى إن السياح الذين زاروا القدس في تلك الآونة قالوا: إن من صادراتهم الجبن والقطن والزبيب والتفاح وقضم قريش[٣] الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والإبر والألبان»، وازدهرت الأسواق حتى إن السوق المسقوف الواقع شرقي كنيسة الدباغة والمعروف بسوق المبيضين، كان على عهد صلاح الدين سوقًا للخضار، وجزء منه كان سوقًا للدجاج والجبن وجميع الألبان آنذاك[٤].

(١) العسلي، وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٩؛ باعامر، أنماط الاستثمار في مدينة بيت المقدس، ص٥٠٦.

(٢) علي، القدس في العصر المملوكي، ص٢٠٠.

(٣) يسميه العرب الصنوبر الصغير، ويسمى كركر أيضًا، وهو عشب جيد مفيد من عدة نواحي طبية.
دُوزِي، رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، الأجزاء ١ ـ ج٨، جمال الخياط، الجزاء ٩ - ١٠، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م، ج٨، ص٣٠٢.

(٤) العارف، عارف باشا، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط٥، ١٩٩٩م، ص١٧٧.

ويظهر نمط عمارة الأســواق الأيوبية التي كان الناس يبتاعون منها في مدينة القدس الشريف، إذ اتبعت أسلوب الأسواق المسقوفة، ومعنى هذا أنه لم تتواجد الخانات متعددة الطوابق التي تدور حول فناء مركزي مكشــوف في المعاملات الجزئية، كما هو الحال في خان السلطان في العصر المملوكي (الأشكال: ٥ - ٨)، بل عرفت نمط القيساريات أو الأسواق التي تتكون من ممر مسقوف طولي تقع على جانبيه المحلات، بحيث أن كل محل منها من مساحة مربعة أو مســتطيلة مغطاة غالبًا بقبو، ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن الخانات كانت بمثابة موضع لتجارة الجملة وليس التجزئة، ومن ثمّ لا يتعامل الأفراد فيها، وربما ذلك هو الســبب في عدم ذكر أوصاف لها من الرحالة أو الأشخاص، وهذا لا يمنع أن تكون غالب التعاملات كانت تتم في الأسواق الجزئية إذ لم تزل المدينة حديثة عهد بعمران المسلمين في العصر الأيوبي لاســيما ونحن لا زلنا في عهد صلاح الدين، أما العصر المملوكي فقد ظهرت آثــار الحضارة المملوكية في شــتى أجزاء المدينــة، وتأثرت بالعمــارة والعمران المملوكي، فأضحى لدينا بها خانات لتجارة الجملة، وأســواق لتجارة التجزئة وغير ذلك، وهذه سمة نفرق بها بين أنواع العمائر الأيوبية والمملوكية في القدس الشريف.

شكل (٥): صورة من أعلى خان السلطان ويظهر بها الفناء وحالة الخراب بالخان سنة ١٩٨٢م[١]

(١) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، عمان، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٣، ط١، ص٢٦٢.

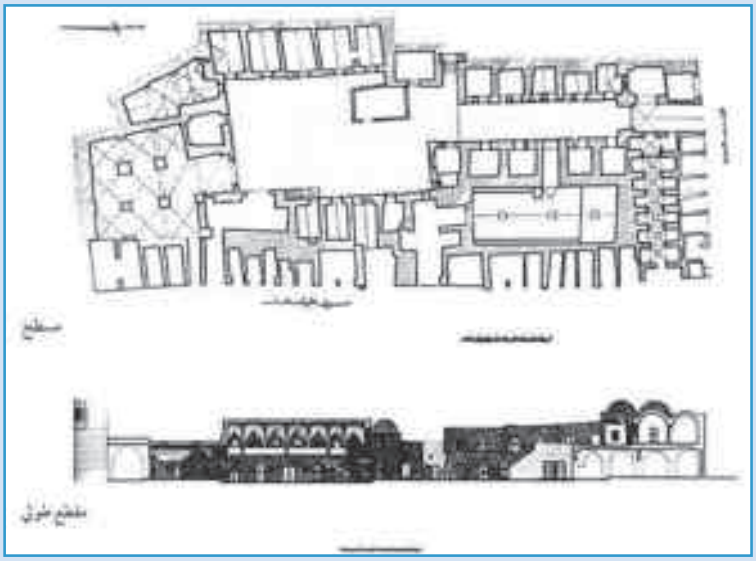

شكلا (٦ - ٧): مسقط أفقي للخان[١]

شكل (٨): الكوابيل الحجرية الحاملة لشرفات الخان[٢]

(١) نجم، كنوز القدس، ص٢٦٣.

(٢) هذا الشكل تم اقتباسه من منشور على صفحة (تاريخ القدس وفلسطين)، على الرابط التالي:
https://www.facebook.com/photo/?fbid=716035615154677&set=%D9%85%D8%AE%D8%B7%D8%B7-%D8%AE%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%B7%D8%A7%D9%86

المطلب الثاني:
أثر الوقف في تطور عمران القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي

كان من مظاهر الرواج الاقتصادي في القدس برعاية الوقف الإسلامي أن انعكس هذا الواقع على الحركة العمرانية والعلمية، فازداد إنشاء المدارس والكتاتيب والزوايا، وزاد طلاب العلم، وأغدقت عليهم العطايا والأموال نظير تفرغهم لطلبه، حتى عد المؤرخ «مجير الدين العليمي الحنبلي» نحو ٤٠ مدرسة أنشئت في العصر المملوكي، وأكثر من عشرين زاوية، وكان دخل الطالب الشهري يتراوح ما بين ٧,٥ إلى ٤٥ درهمًا، فيما يتراوح دخل المعيد - وهو أنجب الطلاب وأنبغهم - بين ٣٠ إلى ١٠٠ درهمًا، بينما يتقاضى المدرس - وهو أستاذ هذا العصر - بين ١٢٠ و١٥٠ درهمًا، وأما الشيخ الأول فيمكن أن يصل راتبه إلى ٥١٠ درهمًا شهريًا، كما كان مفرق الربعة الشريفة يتقاضى بين ١٠ و١٠٠ درهم، والإمام كان أقل ما يصرف له نحو ٨٠ درهمًا، هذا غير الكسوة الموسمية وبدلات أخرى تصرف جميعها من ريع الأوقاف دلالة على الرواج الاقتصادي الذي يضيفه الوقف للمدينة الإسلامية[١].

ويظهر أثر الوقف في الحياة الاقتصادية بالقدس الشريف جليًا عبر انعكاسات ذلك على الناحية المعمارية والرواج العمراني من كثرة إنشاء المدارس والزوايا والخانات والأسواق التجارية، ويمكن تناول ذلك بتحليل إسهام الوقف في عمران البلدة القديمة في القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، بينما يسبق ذلك لمحة عن عمران القدس إبان الاحتلال الصليبي.

أولًا: الوقف وإسهامه في عمران القدس الأيوبية:

احتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، ومن ثمّ عاثوا فيها فسادًا، ودنسوا أماكن العبادة الإسلامية لا سيما المسجد الأقصى، ورغم ذلك كان لهم إسهام في إثراء العمران في مناطق محددة، مثل حارة النصارى التي كانت تعرف بحي البطاركة،

(١) إبراهيم، عبداللطيف، وثيقة وقف السلطان قايتباي، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤١١ - ٤١٢.

وحي الأرمن في الجنوب الغربي من المدينة القديمة، إلى جانب الموضع الذي يعرف حاليًا بالحي اليهودي، وأقاموا عددًا من الكنائس كان أبرزها كنيسة St. Anne[1].

ولما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس بعد حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م، أقيمت الصلاة «ولما انقضت انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع واطرد القياس، وكان قد نصب للوعظ جهة القبلة سرير، فجلس عليه (زين الدين أبو الحسن علي بن نجا)، فذكر من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقي، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بالحجة ذوي الحجا، وجلا بنور وجلا عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا، وأتى بكل عظة للراقدين موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة»[2]، وعمل صلاح الدين سريعًا على إعادة الطابع الإسلامي لا سيما للقدس القديمة، وبناء ما كان قد تهدم من سور القدس بعد أن قضى عدة سنوات عقب معركة حطين، وكان بناء السور في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[3]، وقام بمحو الملامح الصليبية وتحويل المباني المسيحية التي أقيمت في مواضع المساجد إلى أصولها، فهدم معقل فرسان الداوية، وهدم كنيسة (Palatium Solomone) التي أقامها الصليبيون بالمسجد الأقصى، وكنيسة (Tempelum Domini) المقامة بقبة الصخرة، فقد كان الصليبيون بنوا عليها كنيسة ومذبحًا، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسًا ولا مطمحًا، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبة، وكانت فيها صور الأنعام مثبتة في الرخام، ورأيت - أي الأصفهاني - في تلك التصاوير أشباه الخنازير، والصخرة المقصودة المزورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها، وقشر رخامها، وكسر رجامها،

(١) وزيري، يحيى، التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٩.

(٢) الأصفهاني، أبي عبدالله محمد الكاتب القرشي (ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٧٨.

(٣) الداغش، مها أحمد، آثار وتاريخ الحرم القدسي خلال العصر الأيوبي (٥٦٤-٦٤٨هـ/ ١١٦٥ - ١٢٥٠م)، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م، ص١٠٨.

ونقض بنائها، وفض غطائهـــا، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، ونزع لبوســـها، وزفاف عروسها، وإخراج درها من الصدف، واطلاع بدرها من السدف[١]، وهدم سجنها، وفك رهنها، وإضاءة يمنها، وإبداء وجهها الصبيح، وجلاء شـــرفها الصريح، وردها إلى الحالة الحالية، والقيمة الغالية، والرتبة العالية، وهي التي حليها عطل، وعطلها حلى، وعريها كسوة وكسوتها عرى، فعادت كما كانت في الزمن القديم[٢].

وقام صلاح الدين بالوقف على تجديد العمائر المقدسة وإنشاء عدد من المدارس والرباطات والخوانق أهمها المدرسة والخانقاة الصلاحية[٣] شمال غرب كنيسة القيامة، ووقفها على المذهب الشـــافعي، وخارج الحرم الشريف قام بإعادة المدرسة الشافعية لســـابق عهدها بعدما حولها الصليبيون إلى كنيسة، ووقفها على المذهب الشافعي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، كما أوقف لإعادة البيمارســـتان على ســـابق عهده في مداواة الجرحى وتعليم مهنـــة التداوي، وعـــرف بالبيمارســـتان الصلاحي، واتجه بعـــد ذلك لتحصين المدينة؛ فبنى سور القدس سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[٤]، وشارك ورثته من أبناء البيت الأيوبي كالملك العادل في تحصين المدينة وبناء الخندق، والإسهام في عمارة المدينة[٥].

ولم يكن النشاط المعماري قاصرًا على نوع من العمائر دون غيره، فإلى جانب العمائر الدينية أو الخيرية، بنيت مباني أخرى ذات مردود اقتصادي أسهمت في عمران البلدة من ناحية، وفي توفير ريع لعمارة الأوقاف من ناحية أخـــرى، ومن ذلك ما فعله صلاح الدين

(١) السَّدَفُ هُوَ الظُّلْمَةُ، وَقِيْلَ: هُوَ بَيْنَ الضِّيَاء وَالظُّلْمَةِ، انظر:
المستعصمي، محمد بن أيدمر (ت: ٧١٠هـ)، الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق د. كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ج٥، ص٣٧١.

(٢) الأصفهاني، الفتح القســـي في الفتح القدسي، ص٧٩؛ المنهاجي الأســـيوطي، شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبدالخالق، ثم القاهري الشافعي (ت: ٨٨٠هـ)، إتحاف الأخِصّا بفَضَائل المسجد الأقصى، تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ - ١٩٨٤م، ج١، ص٢٧١.

(٣) لمزيد عن المدرسة الصلاحية وأوقافها وتطور عمرانها ينظر:
أحمد، رويدة فضل، المدرســـة الصلاحية في القدس (٥٨٨ - ١٣٣٦هـ/ ١١٩٢ - ١٩١٨م)، رســـالة ماجســـتير بجامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٥م.

(٤) الداغش، مها أحمد، آثار وتاريخ الحرم القدسي، ص٣٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٣٥.

الأيوبي عند إنشاء الخانقاة الصلاحية، إذ أوقف ضمن ما أوقف عليها عددًا من المحلات والأفران والطواحين والاسطبلات والرباع السكنية والدور، منها الربع المجاور للخانقاة المعروف بطاحون عصفور، وفرن، وقبو كبير يعرف باسطبل البطرك، ودار شمال الاصطبل، والحمام المعروف بالبطرك، والقبو والحوانيت المجاورة للحمام، وغير ذلك[١].

وشارك صلاحَ الدين في نقل الحجارة للقدس وتعميرها ملوكُ وأمراءُ الدولة الأيوبية، فضلًا عن القضاة والعلماء والصوفية والأولياء وجميع سكان القدس[٢]، ووفدت الأوقاف من كل حدب لعمران القدس، ومن ذلك أن صلاح الدين أوقف ثلث دخل نابلس وأعمالها لصالح القدس وعمارة سورها.

كانت سياسة صلاح الدين سياسة عمرانية نشطة، إذ دعا إلى الهجرة للمدينة واستيطانها، وهذا ما دفع جموعًا من المغاربة للهجرة إليها مع الأندلسيين الذين فضلوا الهجرة للقدس، وليلحقوا بذلك جموع المغاربة الذين وفدوا ضمن ١٨١ قطعة بحرية كان السلطان يعقوب بن منصور الموحدي قد أرسلها لنجدة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م[٣]، ومن ثمّ أقطعهم صلاح الدين جزءًا من البلدة القديمة قرب باب المغاربة من أبواب الحرم، وشجّع على الوقف فيها لزيادة عمرانها، وقد تحوّلت المنطقة إلى حي من أكثر أحياء البلدة عمرانًا، وهو حي المغاربة، بفضل أوقاف صلاح الدين، ووقف أبي مدين بعد ذلك.

وبذلك تكون خطة عمران القدس الأيوبية قد سارت بفعل الوقف في عدة اتجاهات، أولها منطقة الحرم الشريف، إذ أعاد الأيوبيون تعمير الحرم القدسي بما في ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبدأ بذلك صلاح الدين فأنشأ غرب الحرم مدرسته العامرة المدرسة الصلاحية (شكل: ٩) وأوقف عليها الأوقاف، وثانيها بقية المساحة

(١) انظر: نص وثيقة الخانقاة الصلاحية، في: العسلي، وثائق مقدسية، ج ١، ص ٩١.

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج ١، ص ٣٨٤ - ٣٨٥؛ البرغوثي، يوسف، مدينة القدس: التاريخ والحضارة، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠١٦م، ص ٦٣

(٣) البنداري، قدرية توكل، حي المغاربة بالقدس الشريف دراسة أثرية، مجلة الاتحاد لعام للأثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي، القاهرة، مج١٠، ٢٠٠٩م، ص ٨٤٤.

الداخلية للبلدة والمحيطة بالحرم، إذ أنشأ مقومات العمران فيها بفعل الأوقاف، فنشأت العمائر المدينة الحياتية كالأفران والطواحين، والسكنية كالرباع والدور، والصحية كالبيمارستان الصلاحي، والمنافع العامة كالحمامات، وعمائر الحيوان كالإسطبل وغيره، وبهذا تتنوع العمائر التي تندرج ضمن الوقف، وعلى جانب آخر، بجده يقطع حيًّا كاملًا للمغاربة والوافدين قرب باب الغوانمة، ووقف عليهم، ووقفوا هم أيضًا في هذا الحي لاسيما الوقف المعروف بوقف أبي مدين، حتى نمت عمارته بفعل الوقف وصار حيّا متكامل الأركان يعرف بحي المغاربة قام منذ نشأته على الوقف في العصر الأيوبي.

شكل (٩): مدخل المدرسة الصلاحية معقود بعقد مدبب[١]

(١) عن: أحمد، رويدة فضل: المدرسة الصلاحية في القدس، ص ٣٤.

وثمة أوقاف أيوبية عملت على النهضة العمرانية بالقدس الشريف عقب استرجاعها من الاحتلال الصليبي، ويعد هذا الوقف من أعظم أوقاف الأيوبيين بالقدس، ويتمثل في ما فعله الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين الأيوبي مع أوقافه للمدارس والمصالح السابقة حينما كان ملك دمشق بين (٥٨٢ - ٥٩٢هـ)، وذلك أنه جعل جميع المنطقة الواقعة خارج الجدران الغربية للحرم الشريف (حي المغاربة) وقفًا لمنفعة جميع المغاربة ذكورًا وإناثًا، وعدا كون هذا الوقف للبر والإحسان، فقد كان يؤدي إسهامًا تربويًا، إذ أنشأ فيه مدرسة للدراسات الدينية العليا سميت بالمدرسة الأفضلية نسبة إليه سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م[١]. جمعت المغاربة على المذهب المالكي الذي حبذوه، ليحافظ هذا الحي بأوقافه ليس فقط على عمران الحي، بل على وحدة المسلمين المغاربة، كما أقام لهم مسجدًا وقفيًا خصص له شيخًا من المغاربة يقوم بتدريس المذهب المالكي، وقد عرف المسجد باسم مسجد المغاربة المالكية، وهو بيت للصلاة مستطيل الشكل تبلغ أبعاده (٢٠×٧٠) متر يمتد من الشمال للجنوب، وينقسم إلى رواقين، ويقوم سقفه المكون من أقبية متقاطعة على تسع دعامات حجرية ضخمة، وقد جُدِّدَ المسجد في العصر العثماني سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م في عهد السلطان «عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود»، ثمّ تحول مؤخرًا إلى متحف للفن الإسلامي تعرض فيه بعض المقتنيات الأثرية[٢]، ويؤكد مجير الدين على أنه مسجد مأنوس مهيب مخصص لأصحاب المذهب المالكي[٣]، وقد تبعت أوقافه أوقاف أخرى كثيرة لا سيما في العصر المملوكي بعد ذلك.

وذكر «مجير الدين العليمي» أن وثيقة وقف الملك الأفضل قد فقدت، حيث قال: «... الْملك الْأَفْضَل نور الدّين أبي الْحسن عَليّ ابْن الْملك صَلَاح الدّين تغمده اللّه برحمته وَقفهَا على فُقَهَاء الْمَالِكِيَّة بالقدس الشريف، ووقف أَيْضا حارة المغاربة على

(١) الطيباوي، عبداللطيف، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس: أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، ترجمة: عزت جرادات، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، الأردن، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٤.

(٢) البنداري، حي المغاربة بالقدس، ص٨٥٣.

(٣) العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص١٥.

ورغم أن مجير الدين العليمي يشير بأن هذا المسجد ربنا يرجع أصل بنائه إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، إلا أنه هُدم فأوقف عليه الملك الأفضل وخصّصه للمغاربة.

طَائِفَة المغاربة على اخْتِلَاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم، وَكَانَ الْوَقْف حِين سلطنته على دمشق، وَكَانَ الْقُدس من مضافاته، وَلم يُوجد لَهَا كتاب؛ فَكتب محضرًا بِالْوَقْفِ لكل جِهَة، وَثَبت مضمونه لَدَى حكام الشَّرْع الشريف بعد وَفَاة الْوَاقِف»[1].

وأما الوقف نفسه فقد دوِّن، وجرى تسجيله شرعيًا مرتين بعد وفاة صاحبه وخلال العصر المملوكي، بما يلفت النظر إلى حرص الدولة المملوكية وسلاطينها في بادئ الأمر على صون الأوقاف وحفظها، إذ كانت المرة الأولى سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، فيما كانت الثانية في العصر العثماني سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م، ولا يزال هنالك محضر لتسجيل شهادة بنص وقفي يختصّ بأوقافه محفوظ بالمحكمة الشرعية في القدس، ويشتمل على نص المحضر بالإشهاد القديم المؤرخ بسنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، وأعيد تأكيده سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م، ويتضمن نص المحضر الوقفي: «شرط واقف محلة المغاربة قُيد بإذن مولانا... شجاع الدين أفندي قاضي القدس الشريف... وهذا الكتاب متصل الثبوت والتنفيذ بحكم الشريعة إلى يومنا هذا، وقُيد في اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وأربع... بسم الله الرحمن الرحيم، يشهد من أثبت اسمه وشهادته آخر هذا المحضر، وهم يومئذ من الشهود الأمناء الأحرار العقلاء المسلمين الذكور الأخيار من أهل علم ومخبرة، بما يشهدون به شهادة عرفوا صحتها وتحققوا معرفتها لا يشكّون فيها ولا يرتابون... ويلقون الله بأدائها أنهم يعرفون جميع الحارة المعروفة المسماة بحارة المغاربة بمدينة القدس الشريف... الحي الأول وهو القبلي ينتهي إلى سور مدينة القدس الشريف بعين سلوان، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى دار الإمام شمس الدين قاضي القدس الشريف، ثم إلى دار الأمير عماد الدين بن موسكي ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز، ويشهد شهوده أن هذه الحارة المعينة أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي رحمهم الله، على جميع طائفة

(١) العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص٤٦.

المغاربة على اختلاف أوصافهم، وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم، فاضلهم ومفضولهم، ليسكنوا فيها في مساكنها، وينتفعوا بمرافقها، على قدر طبقاتهم وما يراه الناظر عليهم وعلى وقفهم من ترتيب ذلك وتفضيل من يفضله وتقديم من يقدمه، بحيث لا يتخذ شيء من المساكن مُلكًا ولا احتجازًا ولا بيعًا، وقفًا مؤبدًا شرعيًا، ماضيًا جاريًا على هذه الطائفة المغربية. ويشهد شهوده أن النظر في ذلك وفي كل جزء منه، وفي ترتيب أحواله ووظائفه وأموره راجع إلى من يكون شيخًا قدوة من المغاربة المقيمين في كل عصر وأوان بالقدس الشريف، يتولى ذلك بنفسه، وله أن يولّي من اختار وآثر، ويستنيب عنه من يقوم مقامه، وله عزله إذا أراد، ويشهدون به، وبذلك كتبوا شهاداتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر الله رجب الفرد سنة ست وستين وستمائة»[(١)].

وهكذا ترتسم خريطة عمران الحي المغربي بحدوده الأربعة (شكل: ١٠)، أما داخل الحي بعمارته وعمرانه فيكاد يكون ممتلئًا بفعل الأوقاف وتوافد المغاربة للاستيطان في القدس منذ استرداد صلاح الدين الأيوبي للقدس، وتبدو سطور المحضر مفيدة جدًا في تحديد معالم الحي، إذ نصّ على وقوع حائط الحرم الشريف في الجهتين القبلية (الجنوبية) والشرقية، فيما يحد الحي من الشمال قنطرة «ويلسون» قرب المدرسة التنكزية عند باب السلسلة من أبواب المدينة، وأما الحد الغربي فيعرف بحارة الشرف على المنحدر الغربي لمحلة الواد أو الجبانة، وقد عرفت بحارة الشرف نسبة للأشراف ذوي الشرف الذين قطنوها[(٢)]، فكان سكن المغاربة في الأماكن الوقفية بالحي، وتعليمهم في المدارس الوقفية، وطعامهم وشرابهم منها أيضًا، فيما كان يصرف لهم كسوة لذكورهم وإناثهم، ومن هذا نتبين أهمية وإسهامات الأوقاف البارزة في تعمير المنطقة لكونها موئل السكان ومنبع عطائهم في كل أمورهم الحياتية العاجلة، والأخروية المتأتية.

(١) وثائق المحكمة الشرعية بالقدس الشريف، سجل رقم (٧٧)، ص٥٨٨.

(٢) الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، ص١٦ - ١٧.

شكل (١٠): مخطط لعمران مدينة القدس الأيوبية[١]

وترجع أهمية هذه المنطقة أيضًا إلى أنها أقرب نقطة للصخرة المقدسة التي عرج منها سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ملاصقة لحائط البراق، وتبلغ مساحتها ٤٥٠٠٠ متر، وامتدت الحارة واتسعت حتى خرجت عن سور القدس، فأطلق عليها حارة المغاربة البرانية[٢]، وهي التي دنسها الاحتلال الصهيوني وغيّر معالمها، واستبدل أسمائها

(١) عن: أحمد، رويدة فضل: المدرسة الصلاحية في القدس، ص ٣٤.

(٢) البنداري، حي المغاربة بالقدس الشريف، ص٨٤٣ - ٨٤٤.

الأصلية بأسماء توراتية، وكذا اغتصابهم لوقف أبي مدين وحائط البراق وغير ذلك من معالم هذا الحي الإسلامية.

وأما حائط البراق فكان تلتصق به مساكن أوقاف المغاربة، فيما كان يغلق الممر الذي يؤدي إلى رصيف المبكى «المداميك الستة» حائط آخر يعود إلى وقف إسلامي لمدرسة دينية تحولت بعد ذلك إلى محكمة، ومما يدل على عمارة كامل هذا الجزء في العصر الإسلامي أن أرضيته مرصوفة بحجارة مستوية شأنها شأن باقي شوارع المدينة وطرقاتها.

أما الملك المعظم عيسى فقد بلغ عمران القدس في عهده قمة العمران، فشيد المدرسة النحوية سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، والمدرسة المعظمية ٦١٤هـ/١٢١٧م، والمدرسة البدرية ٦١٠هـ/١٢١٣م خارج السور الغربي، وقام ببناء القناطر الجنوبية الشرقية لصحن الصخرة المقدسة سنة ٦٠٨هـ/١٢٢١١م، وقد أورد «مجير الدين العليمي» في حقه: «وَكَانَ الْملك الْمُعظم عَالمًا فَاضلًا وَكَانَ حنفيًا متعصبًا لمذهبه، وَخَالف جَمِيع أهل بَيته؛ فَإِنَّهُم كَانُوا شافعية، وَله بالقدس مدرسة الحنيفية عِنْد بَاب الْمَسْجِد الْأَقْصَى الْمَعْرُوف الْآن بِبَاب الدويدارية، وَبنى على آخر صحن الصَّخْرَة من جِهَة الْقبْلَة مَكَانًا يُسمى النحوية للاشتغال بِعلم الْعَرَبيَّة، ووقف على ذَلِك أوقافًا حَسَنَة، وَفِي أَيَّامه جددت عمَارَة القناطر الَّتِي على درج الصَّخْرَة القبلي عِنْد قبَّة الطومار وَغير ذَلِك بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وغالب الْأَبْوَاب الْخشب المركبة على أَبْوَاب الْمَسْجِد عملت فِي أَيَّامه، واسْمه مَكْتُوب عَلَيْهَا، وَعمر مَسْجِد الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام، ووقف عَلَيْهِ قريتي دورا كفر بريك»[(١)]، وأنشأ سبيل شعلان وقفًا مائيًا سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م[(٢)] وغير ذلك.

ومن ثمّ يتبين تنوع الأوقاف التي أدت إلى تطور عمران القدس برعاية المعظم عيسى، حيث كثرت أوقافه التعليمية من مدارس في منطقة السور الغربي من الحرم مما أدّى إلى زيادة عمران المنطقة، وأوقافه لربط أجزاء البلدة القديمة ببعضها لا سيما

(١) العليمي، الأنس الجليلي بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص٤٠٣.

(٢) الداغش، آثار وتاريخ الحرم القدسي خلال العصر الأيوبي، ص٣٥.

بمنطقة الحرم كالقناطر التي أنشأها جنوب شرق الحرم، وأوقافه المائية لتلبية احتياجات السكان كسبيل شعلان.

وعلى الرغم من اتساع عمران وعمارة البلدة القديمة بالقدس في العصر الأيوبي خاصة على يد المعظم عيسى (شكل: ١٠)، إلا أن هذا الازدهار والتطور العمراني قد تراجع بشدة، إذ أمر بهدم أسوار المدينة وتحصيناتها ومنشآتها سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م باستثناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبرج داود، وذلك حتى لا يستفيد الصليبيون من تحصيناتها، كما أخليت المدينة من السكان، ثم قام الملك الكامل بتسليم المدينة لإمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[١]، ورغم قيام الملك الصالح نجم الدين أيوب من عمارة للمدينة إلا أنها ظلت بحاجة إلى عمارة وإصلاح واتساع عمران حققته الدولة المملوكية ومن بعدها العثمانية حتى غدت البلدة القديمة بالقدس من أبهى مدن العالم الإسلامي وأهمها عمرانًا.

ثانيًا: الوقف وعمران القدس المملوكية:

انتهى عصر الدولة الأيوبية فعليًا بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ومقتل ابنه توران شاه، ومن ثم قامت الدولة المملوكية على أنقاض الأيوبيين، فورثوا القدس وقد تهدم عمرانها، وخرب بنيانها، وهجر معظم سكانها، وقد انشغل السلاطين المماليك الأوائل بصد الهجوم التتري على بلاد الإسلام، فلم يكن لديهم متسع من الوقت للعمارة والعمران، ولذا كان أول من اهتم بعمران بلدة القدس من المماليك هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، فقام بترميم وتجديد قبة الصخرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وأمر بكسوة أرضيتها بالبلاط، وحرص أغلب السلاطين من بعده على زيادة عمران القدس، ووقف المباني الخيرية وجراية الأرزاق عليها مما أدى إلى تغيير الملامح المعمارية والحدود الجغرافية للمدينة المقدسة، وفي العموم بلغ نظام الوقف في فلسطين درجة كبيرة من النضج والاكتمال خلال العصر المملوكي؛ إذ شارك السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم بجزء من ثرواتهم للنهوض بها، فأقاموا مؤسسات متنوعة، وحبّسوا

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥.

عليها الأوقاف، وسجل كل منهم وقفه للتأبيد، ومن ثم كانت الأوقاف أساس تلك النهضة[١]، إذ شهد عصر المماليك ظروفًا اقتصادية ومستجدات أدت إلى انتشار الأوقاف وازدهارها وتنوعها، وتمثلت في انتعاش الحياة الاقتصادية للمماليك في غالب حكمهم؛ وذلك لسيطرتهم على التجارة العابرة بين الشرق والغرب، مع مرونة النظم المالية التي جعلت غالب الإيرادات تصب في خزائن السلاطين والأمراء بما حقق لديهم دخلًا وفيرًا فائضًا أنشأوا به الأوقاف وحبّسوها[٢].

وقد ازداد عمران القدس المملوكية بالأوقاف زيادة كبيرة، وتنوعت درجات الواقفين فيها تنوعًا كبيرًا، حيث أوقف السلاطين، ونواب السلطنة، والأغنياء، والمغاربة، والمصريون، وغيرهم، وكان حي المغاربة أحد الأحياء التي تضاعفت فيها مؤسسات الوقف عمارة وعمرانًا ورعاية لمصالح المسلمين، ومن أشهر ما أوقف فيها خلال تلك الحقبة الوقف الذي عرف بوقف أبي مدين التلمساني[٣]، إذ أوقف أحد أفراد هذه العائلة المدعو عمر بن عبدالله بن عبدالنبي المصمودي المجرّد وَقَفَ قسمًا من أمواله لزاوية دينية في الثالث من ربيع الثاني سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م لينتفع به المغاربة الذين يعيشون مجاورين للحرم القدسي الشريف في الحي الذي عرف فيما بعد بحي المغاربة، فكان هذا أول وقف وقفه مغربي لمنفعة المغاربة في القدس، وعندما توفي مؤسس هذا الوقف دفن في مقبرة مأمن الله (ماميلا) حيث دفن عدد من رجال الدين والعلماء المسلمين منذ العهد الصلاحي في القدس[٤].

(١) الخطيب، محمد عثمان، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، أطروحة مقدمة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ، جامعة اليرموك، ٢٠٠٧م، ص١.

(٢) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٩٠.

(٣) وهو شيخ عائلته التي هاجرت من الأندلس إلى القدس طلبًا للعلم وفرارًا بدينهم، يدعى شعيب بن الحسن الأندلسي، ويكنى أبا مدين الغوث، وتوفي سنة ٥٩٤ للهجرة النبوية/ ١١٩٧م، وكان عالم حديث وصوفيًا مشهورًا، تتلمذ على يديه اثنان من مؤسسي الصوفية هما: عبدالقادر الجيلاني في مكة، ومحي الدين بن العربي.
انظر: المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج٧، ١٩٠٠م، ص١٣٦.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥-١٦٣-٢٤٣.

وقد أثبت أبو مدين وقفه في وثيقة وقف شرعية جاء نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب وقف صحيح شرعي... أكتبه... الشيخ.. أبو مدين شعيب ابن أبي عبدالله محمد ابن... أبي مدين شعيب المغربي.. أشهد على نفسه وهو في صحته أنه وقف... جميع المكانين الآتي ذكرهما ووصفهما وتحديدهما الجاريين في يد الواقف المذكور وملكه وتصرفه وحيازته إلى حين هذا الوقف.... وأحد المكانين المذكورين هو قرية تعرف بقرية عين كارم من قرى مدينة القدس الشريف، وتشتمل على أراضي معتمل ومعطل وأوعار وسهل... وعلى آثار دُوْرٍ برسم سكنى فلاحيها... وبستان صغير، وأشجار رمان وغير ذلك يستقى من هين مائها، وأشجار زيتون رومي، وخروب وتين وبلوط... أوقفها بجميع حقوقها ومرافقها والعين الموجودة فيها... والأشجار النابتة، والآبار الخربة وقرامي العنب العتيقة الرومية وما ينسب للقرية المذكورة بكل حق من حقوقها... خلا ما في ذلك مسجد الله تعالى، وطريق المسلمين ومقبرة لهم، فإن ذلك خارج عن هذا الوقف وغير داخل فيه، وأما المكان الثاني الموقوف فإنه بالقدس الشريف بخط يعرف بقنطرة أم البنات بباب السلسلة المشتمل على إيوان وبيتين وساحة ومرتفق خاص، وسُفليّ ذلك مخزن وقبو... وقفًا صحيحًا شرعيًا قاطعًا... دائمًا سرمديًا، خالصًا لأهله مؤبدًا والمستحقين على الدوام... لا يباع ذلك ولا شيء منه، ولا من حقوقه، ولا من حدوده، ولا يُملَّك، ولا يناقل، ولا يُحلُّ عقد من عقوده، ولا يرجع هذا الوقف لغير أهله... لا يبطله تقادم دهر، ولا يوهنه اختلاف عصر، كلما مرّ عليه زمان أكده... أبد الآبدين... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... أنشأ الوقف المذكور... وقفه هذا على السادات المغاربة المقيمين بالقدس الشريف والقادمين إليها من السادة المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم... لا ينازعهم فيه منازع، ولا يشاركهم فيه مشارك...، ينتفعون بذلك... ويقدّم الواردون على المقيمين، الأحوج فالأحوج...، فإذا انقرضت المغاربة ولم يوجد أحد مقيمًا بالقدس الشريف... فيرجع وقفه على من يوجد من المغاربة في مكة المشرفة وعلى من يوجد من المغاربة بالمدينة المنورة، فإذا لم يوجد منهم أحد بالحرمين الشريفين فيرجع وقفًا على الحرمين الشريفين»[1].

(١) يمكن مراجعة نص كتاب الوقف بشروحاته وبيان أهميته من نواح حضارية استثنائية عدة في:
ماسينيون، لوي، وثائق عن أوقاف الأماكن المقدسة في الإسلام ـ وقف التميمي في الخليل وأبو مدين في أورشليم القدس، ترجمة وتقديم: د. مي محمود، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ٢٠١٦م.

ونما الحي واتسع حتى امتد خارج أسوار البلدة - كما سبق القول -، وسار الجزء الخارجي منه يعرف بحي المغاربة البراني، وقد شرط الواقف على الناظر ضرورة عمارة الوقف وصيانته بقوله: «وعلى كل من يتولى هذا الوقف أن يبدأ بعمارته وإصلاحه»، وعند فائض غلات الوقف عن الحاجة بعد إصلاح المرمات، يُصنَعُ الخبز ويُفرَّقُ في الزاوية المغربية في شهور رجب وشعبان ورمضان[١].

وتكونت عمارة زاوية أبي مدين من إيوان كبيرة، ومنزل، وساحة، ومرتفق خاص[٢] يقع أسفله مخزن مغطى بقبو، لتكون العمارة في مجموعها مجمّعًا معماريًا يلبي احتياجات المنطقة ويعمل على خدمتها.

ولم تتوقف أوقاف المغاربة على النهوض بحي المغاربة بالقدس الشريف عمارة وعمرانًا، ولا إنفاقًا في وجوه البرّ على اختلاف أشكالها وألوانها على النماذج السابقة، بل أضيف بعد عدة سنوات وقف المجاهد السيد عمر المصمودي سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، وتمثلت إسهامات أوقافه في عمارة الحي بثلاث دور سكنية إلى الغرب من حارة المغاربة، كما اشتمل وقفه على عشر حجرات بجميع مرافقها ومبانيها أنشأها من ماله لوقفها على الفقراء والمساكين من المغاربة، وزاوية من طابقين خصص الطابق العلوي منها مسجدًا للصلوات الخمس، وموضع يدفن فيه،، وللأسف هُدم هذا الوقف مع أكثر من ١٣٨ منزلًا مع حائط البراق والحارة بأكملها جراء الاعتداءات اليهودية لتغيير معالم المنطقة وفقدان هويتها الإسلامية العربية[٣].

وثمة وقف آخر ذو أهمية بارزة في تاريخ أوقاف القدس المملوكية من الناحية الدينية، وهو وقف أحد سلاطين الدولة المرينية، وهو علي بن عثمان بن يعقوب سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م لمصحف شريف كتبه بخط يده وأودعه المسجد الأقصى[٤]، ولم يكتف

(١) الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى، ص١٠.

(٢) البنداري، حي المغاربة بالقدس، ص٨٤٦.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع: يشو، حسن، علاقة المغاربة بفلسطين «الرحلة والوقف»، كتاب الأمة، العدد ١٧٣، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ربيع الأول ١٤٣٧هـ، السنة ٣٦، ص١٢٦ - ١٣٨.

(٤) الطيباوي، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى، ص١٢.

بلك، بل أوقف مبلغًا من المال بلغ مقداره نحو ١٦٥٠ دينارًا ذهبيًا لشراء العقارات والأراضي في القدس والحرمين الشريفين، وأوقفها على مصالح المغاربة[١]، مع حفر بئر برعاية الوقف لتخزين مياه الأمطار في الحي عرف باسم بئر سبيل المغاربة بعمق ٩ أمتار لتزويد السبيل بماء الشرب اللازم[٢].

وكانت العمارة المملوكية في القدس منظمة بفضل الوقف، إذ كان لكل حارة مداخلها، ومن ذلك حارة المغاربة، إذ كان لها بوابة في الجهة الجنوبية منها تنتمي عمارتها إلى العمارة المملوكية، لها فتحة مستطيلة معقودة بعقد مستقيم ذي جانبين معقودين يحيط بها عقد ذو وسائد متراصة محددة بجفت[٣] بارز حجري، فيما يربط بين الحارة والحرم باب المغاربة قرب الزاوية الفخرية، وهو أحد أبواب الجهة الغربية من المسجد الأقصى المبارك، وهو كتلة كبيرة ترتفع نحو ٤ أمتار يتوجها عقد مدبب يؤدي إلى دركاة عميقة يغطيها قبو حجري متقاطع.

ولم يقف العمران المملوكي على البلدة القديمة بالقدس على تجديد عمائر دينية قديمة وترميمها، وإنما بلغ الأمر أكثر من ذلك، إذ تضمن توسيعًا للرقعة العمرانية خارج أسوار الحرام، وكثرة في إنشاء وترميم المدارس والخوانق والأربطة والأسبلة المائية كعمائر وقفية، واهتم المماليك أيضًا بالتحصينات الدفاعية، فقاموا بتدعيم وتقوية السور.

هذا ولم يكن الوقف حكرًا على حي المغاربة، بل شمل البلدة القديمة كلها (شكل: ١١)، بما في ذلك أروقة الحرم الشريف، إذ شيّد السلطان الناصر محمد بن قلاوون نماذج عدة من الأروقة في عهده، ومن أهمها الرواق الممتد من باب الغوانمة إلى باب الناظر سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، والرواق الممتد من باب الناظر إلى باب القطانين، وامتداده من باب القطانين إلى باب المغاربة، وشيّد من جملة ما شيّد في القدس الشريف: الجامع الموجود

(١) يشو، علاقة المغاربة بفلسطين، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) البنداري، حي المغاربة بالقدس، ص ٨٥١.

(٣) الجفت: عبارة عن إطار بارز يلتف حول العقد بمثابة حلية زخرفية بارزة منحوتة في الحجر أو الرخام أو غير ذلك من المواد الخام.
انظر: الحداد، محمد حمزة إسماعيل، القباب في العمارة المصرية الإسلامية: القبة المدفن، نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٥٣.

شكل (١١): البلدة القديمة في القدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي[١]

داخل القلعة عند زاويتها الجنوبية الغربية، وقد سجل عليها بخط النسخ نقشًا بالنسخ المملوكي: «... أنشأ هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون أعز الله نصره في تاريخ سنة عشرة وسبعماية حسبنا الله ونعم الوكيل» وتوافق سنة ١٣١٠م[٢]، هذا غير تجديده لعدد من

(١) شعث، شوقي، التراث المعماري في القدس الشريف بالعهد الأيوبي ووسائل صيانته وترميمه، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، مج١٦، ع٦٤، يوليو ١٩٩٦م، ص٢٧

(٢) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٠١.

الأوقاف القديمة كالقلعة وقبة المسجد وقبة الصخرة، ومن أجلّ أوقاف القدس التي عملت على تنشيط العمران بها خلال عهده، وقف الأمير تنكز لقناة الماء الواصلة إلى مدينة القدس، فأورد «مجير الدين» أن ابتداء عمارتها كان في شوال سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م وأنها وصلت إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر ربيع الأول سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م، وصارت تعرف بقناة الماء بعدما كانت تشتهر بقناة السبيل (شكل: ١٢)، كما شيّد البركة الكائنة بين الصخرة والأقصى والمعروفة باسم الكأس، وهي رخامية، وأوقف خلال حكمه أيضًا الحمّام الجديد[١]، وبذلك شهدت القدس تنوعًا وقفيًا عمل على اتساع العمران بشكل لم تشهده القدس قبله، كما كان لهذه القناة أثر في بناء أوقاف مائية أخرى في البلدة القديمة في القدس.

شكل (١٢): قناة السبيل[٢]

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٥.

(٢) الحداد، محمد حمزة، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، الكتاب الثاني: الأسبلة السليمانية في القدس، ط١، دار القاهرة للنشر، ٢٠٠٤م، شكل ٣ في المرجع

ويعد السلطان الناصر محمد من أجلّ سلاطين المماليك، ويعد رائد العمارة المملوكية الأول ومن بعده السلطان الأشرف قايتباي، إذ زادت الأوقاف في عهده زيادة كبيرة سواء أكانت من إنشائه أم من إنشاء رجال دولته، أم أنشئت في عهده.

ومما أوقف في القدس الشريف من عمائر ومنشآت أسهمت في عمران المدينة وعمارتها عددٌ من المدارس الوقفية والأروقة التعليمية، ومنها:

رِبَاط كرد بِبَاب الْحَدِيد بجوار السُّور تجاه الْمدرسَة الأرغونية لواقفه الْمقرّ السيفي كرد صَاحب الديار المصرية فِي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٢م[١].

الْمدرسَة السلامية بِبَاب شرف الْأَنْبِيَاء تجاه المدرسة المعظمية وَهِي بجوار الْمدرسَة الدويدارية من جِهَة الشمَال واقفها الخواجا مجد الدّين أبو الفدا إسماعيل السلَامِي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م[٢].

الْمدرسَة الجاولية[٣] أوقفها الأمير علم الدّين سنجر الجاولي نَائِب غَزَّة شمالي الحرم عند درج الغوانمة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م.

المدرسة التنكزية (شكل: ١٣) إحدى أشهر مدارس القدس قاطبة لنائب السلطنة الأمير تنكز الناصري بجوار باب السلسلة غرب الحرم الشريف سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م[٤].

وقد حرص سلاطين المماليك على تسجيل أسمائهم على الأوقاف ضمن النقوش الوقفية، ومن ذلك ما أثبت في نقوش قبة الصخرة من أسماء السلاطين: الأشرف بيبرس، العادل كتبغا، الناصر محمد، كما أوقف الأشرف برسباي سنة ٨٣٦هـ بعض الحبوس والأملاك على قبة الصخرة، وقدّم الظاهر جقمق سنة ٨٥٢هـ إلى ناظر الحرم القدسي ألفين وخمسمئة دينار ذهب، ومئة وعشرين قنطارًا من الرصاص لعمارة قبة

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٢.

(٣) ومما يؤسف أن أوقاف المدرسة قد ضاعت كغيرها من أوقاف القدس. ينظر: كرد علي، محمد بن عبدالرازق ت: ١٣٧٢هـ، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٦، ص١١٨.

(٤) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٠١.

شكل (١٣): جزء من حجرات المدرسة[١]

الصخرة من الخارج، وفي عهد السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٢هـ صنعت الأبواب النحاسية للمداخل الرئيسة لقبة الصخرة، وزادت أوقاف المسجد الأقصى بما عمل على اتساع العمران بالمدينة[٢].

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي عُمِّرت الأوقاف بالقدس الشريف[٣]، كما عرف السلطان الأشرف بتشجيع الحركة العلمية ودعم الموروث الثقافي وترسيخ دعائم الوقف الإسلامي، فاشترى للوقف الضيع والقرى وحبسها لخدمة المتعلمين، وما بقي من الوقف سخره لصالح الصخرة المشرفة في القدس، ونقش ذلك على حائط الصخرة في اتجاه قبة المعراج سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م، كما قام الملك الأشرف برسباي بوقف المصحف الشريف الذي أهدى إليه بدمشق للمسجد الأقصى حيث وضع بداخل الجامع باتجاه المحراب وجعله وقفًا على للقارئ والخادم، ويكون النظر فيه مخصصًا لشيخ المدرسة

(1) https://www.wikiwand.com/ar

(٢) شبير، محمد عثمان، بيت المقدس، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج٣، ع٦، ديسمبر ١٩٨٦م، ص١٢٩.

(٣) الخطيب، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، ص١٠٠.

الصلاحية بالقدس الشريف[١]، وينسب للسلطان الأشرف برسباي تشييد عدد من المؤسسات العلمية في مدينة القدس بما يكفل التطور العلمي والانفتاح الثقافي في المدينة المقدسة وجذب العلماء واستدراج طلاب العلم.

ومن أشهر المدارس في عهده المدرسة الباسطية الواقعة شمال الحرم القدسي سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م[٢]، والمدرسة القادرية، وموقعها في شمال الحرم القدسي، شيّدت عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م والمدرسة الحسينية بالقرب من باب الناظر أعلى رباط علاء الدين البصيري التي بنيت سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م، وكذلك المدرسة العثمانية التي تقع على مسافة أمتار من باب المطهرة (المتوضأ)، وقد أسست عام ٨٤٦هـ/١٤٣٦م[٣].

ومن مآثر السلطان الأشرف برسباي تعمير الأسبلة المائية في مدينة القدس والحفاظ عليها وصيانتها، فجرى في عهده تجديد سبيل شعلان الذي شيد في عهد الملك المعظم الأيوبي سنة ٦١٣هـ/١٤٢٩م، وموقعه في الجزء الشمالي من الحرم القدسي، وكان تجديده مع المصلى والمحراب الذي بجواره سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م، حيث وثق ذلك على أحد حوائط السبيل منقوشة بالنسخ المملوكي، وكتب عليها: (جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين الشريفين في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وثمانمئة)[٤].

وأسهم السلطان الأشرف قايتباي في إنشاء وتعمير مؤسسات مائية في مدينة القدس لما لها من أثر في ترسيخ جذور العلم واستدامة الحياة الفكرية وتوفير سبل العيش للعلماء والطلاب في القدس، حيث أسس في عهده شمس الدين محمد بن الزمان الرباط الزماني في القدس الواقع شمال الطريق المؤدية إلى باب المطهرة، كما أعاد السلطان قايتباي تشييد السبيل الكائن بين باب السلسة (شكل: ١٤) وباب السكينة،

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٦٨.
(٢) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، عمان، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٣، ط١، ص٢٧٨.
(٣) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢٠٨.
(٤) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٩، ص٢١٦.

وكان بناءً قديما فجدّده السلطان قايتباي ليصبح أكبر الأسبلة داخل الحرم القدسي في مقابل درج الصخرة ناحية الغرب، وقد استخدم السلطان في تجديده حجارة قيل إنها كانت في قبور السلاطين[١]، ومن مآثره الوقفية إنشاء المراكز العلمية في مدينة القدس، ومنها المدرسة الأشرفية عند باب السلسلة التي كانت بداية تأسيسها في عهد السلطان الظاهر خشقدم وبعد وفاته تسلم السطان قايتباي مهمة تأسيسها والإشراف على بنائها، فنسبت له، ونقش ذلك على جدران المدرسة سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م[٢].

شكل (١٤): لوحة عامة لباب السلسلة المؤدي لطريق باب السلسلة، وتظهر عقدي المدخل تعلوهما المأذنة[٣]

أما من حيث بنية وتخطيط عمران البلدة القديمة جميعها بفعل الأوقاف المملوكية، فقد أقيم بها طريقان مركزيان يشقان المدينة القديمة، أولهما يمتد من الشرق إلى الغرب، يعرف بباب السلسلة، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن، ويبدأ من الساحة القريبة من القلعة التي كان يقطنها حاكم القدس (نائب السلطنة المملوكية) آنذاك، وتصل إلى الأسواق، ومن ثم

(١) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص٢١٣.

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤١٣.

(٣) نجم، كنوز القدس، ص١٨٧.

يتعرج الطريق إلى الجنوب ممتدًا نحو الشرق، وعلى جانبي الطريق تتواجد العمائر الوقفية المتنوعة، وأقيمت هناك بعض الأسواق الوقفية الصغيرة المتخصصة، مثل سوق الحريرية، وسوق الطباخين، وسوق المبيضين، وسوق الصاغة، وذلك على مقربة من درج العين، فيما يقع الطريق الثاني ليربط بين باب العمود شمالًا حتى باب النبي جنوبًا ليعرف باسم طريق الواد (أو خط وادي الطواحين)، ويمتد من باب العامود حتى درج العين ليصل في آخره عند بئر أيوب[1]، وقد بلغ اتساعها العمراني أَضعاف ما كانت عليه في بداية العصر المملوكي، فكثرت أحيائها وتشعبت أزقتها، إذ أنشئت إلى جانب الطريقين السابقين شبكة من الشوارع والأزقة التي ضمت عددًا من الشوارع الفرعية التي تنتهي إلى طريق مسدود لتأمين الحي الموجودة به تلك الشوارع، فقد قسمت المدينة إلى عدد من الأحياء لكل منها مداخل معلومة، وانتشرت العمائر بمختلف أنواعها، واستصلحت الأراضي الواقعة خارج السور لاستثمارها في إدخال ريع للأوقاف، وبنيت البيوت والمساكن والمنشآت التي تخدم أولئك الذين يعملون في تلك المواقع، وبنيت بجانبها أربطة وأسبلة ومساجد ومدارس لتقديم الخدمات لهؤلاء مما دفع بعجلة العمران للأمام حتى غدت المدينة من أروع مدن العالم الإسلامي تحت رعاية الدولة المملوكية.

ولم يقتصر إسهام الوقف المملوكي في القدس الشريف على جانب دون آخر، وإنما كان وقفًا شاملًا وجدت بفعله كل الأنشطة الحياتية، وعُنيَ المماليك بتوفير ماء الشرب لحاجته الماسة في كل المنشآت والعمائر الوقفية، فعمدوا إلى تخزين مياه الأمطار في آبار أعدت أمام البيوت والمنازل، وأقيمت برك في الجهة الشمالية الشرقية للحرم الشريف، وأقيمت برك في حارة النصارى لتخزين المياه، كما خصّصوا أوقافًا لجلب الماء من عين سلوان وبئر أيوب، وأعادوا ترميم وإصلاح قنوات الماء الأرضية التي كان قد شيّدها صلاح الدين، كما أنشأ سلاطين المماليك قنوات مياه أخرى تصب في برك وأحواض أُعدت خصيصًا لسد احتياجات الأوقاف المائية، وقد جرت غالبية هذه الأعمال

(١) يشو، حسن، علاقة المغاربة بفلسطين الرحلة والوقف، كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، العدد ١٧٢، ربيع الأول ١٤٣٧هـ، السنة ٣٦، ٢٠١٥-٢٠١٦م، ص٨٩.

أيام السلاطين: محمد بن قلاوون في سنوات ٧١٢هـ/١٣١٣م، ٧١٩هـ/١٣٢٠م، ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، خشقدم وقايتباي بين سنوات ٨٦٩ - ٨٧٤هـ/ ١٤٦٥ - ١٤٧٠م[١].

هذا وتتعدد خصائص العمارة المملوكية في القدس، وتتنوع تبعًا لجغرافية القدس الجبلية ولمركزية الحرم القدسي في تحديد الانتشار العمراني، حيث نجد أن أهمية الحرم الشريف قد حصرت البناء في ساحاته وفي الحارات السكنية المجاورة له، ولم تسمح بالتوسع والانتشار العمراني الأفقي على غرار القاهرة أو دمشق أو حلب، بل بخلافها انحصر البناء عموديًا ليبقى متاخمًا لصخرة المعراج والمسجد الأقصى فاكتظت الشوارع وأزقة القدس المؤدية إلى الحرم بالبنايات مما اضطر المهندس المملوكي إلى الدمج بين العمارة الجديدة والبناء القديم القائم وما تطلب ذلك من إعادة تصميمهم لمبانٍ ومنازل قائمة وتغيير معالمها لتخدم الاستخدامات الوظيفية الجديدة، وهو ما تثبته الحفريات الأثرية خاصة في الساحة التي تتوسط خان تنكز ورباط النساء والمدرسة البلدية أمام باب السلسلة أسفل السبيل العثماني القائم، وهكذا أصبحت المخلفات الرومانية والبيزنطية والأموية والفاطمية والأيوبية، وحتى الصليبية قاعدة انطلاقٍ وجزءًا لا يتجزأ من البناء المملوكي برعاية الوقف، فدُمجت مبان قائمة في الأعمال التي شيّدها المماليك بأسلوب إبداعي خلّاق على غرار المدرسة الوفائية في منطقة باب الناظر، وبنيت الجسور حين الحاجة كما في شارع الواد وسوق القطانين والسقّالات في منطقة باب الحديد وصولًا إلى منطقة سوق القطانين، ولا يزال لهذه العمائر واجهاتها الأخّاذة في كل شوارع القدس القديمة، وقد شيّد المماليك مبانيهم المذهلة في أحياء سكنية مكتظة بالأبنية، وبنوا واجهات فخمة لتمييز كل بناء عمّا يجاوره، ولكن نظرًا إلى ارتفاع أسعار العقار من ناحية وعدم توفر المساحة الكافية للوظيفة المنوطة بالبناء أو الوقف من ناحية أخرى، فقد امتد بناء بعض الزوايا أو الأربطة أو المدارس إلى طابق يعلو أسقف الأبنية المجاورة مثل المدرسة الأرغونية[٢] في باب الحديد،

(١) كوهين، أمنون، القدس في عصر المماليك، في كتاب «القدس: دراسات في تاريخ المدينة، تحرير إسحاق حسون، ترجمة: سلمان مصالحة، نشر: ياد يتحساق بن تسفي، ١٩٩٠م، ص ١١٤.

(٢) واقفها أرغون الكاملي نَائِب الشَّام وَهُوَ الَّذِي استجد بَاب الْحَدِيد أحُدُ أبواب الْمَسْجِد، ينظر: العليمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٦.

لتصبح المباني السابقة قاعدةً يُشاد فوقها أو يجري تعديلها لتتناسب مع تصاميم المنشآت الجديدة، فالالتجاء إلى البناء العمودي للبقاء في جوار الحرم الشريف شكّل تحديًا للمهندسٍ المعماري الذي وجد نفسه مقيدًا بقيود فرضتها التضاريس الجغرافية والمتغيرات الميدانية المحيطة مثل اتجاه ودرجة انحدار الشارع، وتراص الأبنية المتلاصقة، وطبيعة البناء المحيط، واتجاه القبلة، حيث كان يتوجب عليه أن يقوم بإيجاد حلول لكل مشكلةٍ على حدة[١].

وإجمالًا: يمكن القول:

إن البلدة القديمة بالقدس المملوكية قد قام عمرانها برعاية الوقف نشأة، وعلى مبدأي: الأمن والجمال تنفيذًا وإخراجًا، الأمن من حيث البناء بالحجر شديد الصلابة، والجمال في التصميم المعماري والتخطيط العمراني، فقامت على مبدأ أو مفهوم العمارة المغلقة التي تفتح على الصحن الداخلي خاصة في العمائر المدنية السكنية، فيما حوت البلدة عددًا من البساتين الوقفية التي امتلأت بالأشجار المثمرة وكروم العنب والتين والتفاح، وحتى في شؤون الوفاة والدفن، فقد طالتها يد الأوقاف المملوكية، إذ دفن المسلمون أكثر موتاهم في ثلاث مقابر داخل القدس تتبع الوقف الإسلامي، **الأولى:** تقع فوق الزاوية الأدهمية في الجهة الشمالية، **والثانية:** مقبرة باب الرحمة في الشرق، **وأما الثالثة** فهي أكبر المقابر الموقوفة وهي مقبرة ماميلا في الغرب[٢]، وذلك إلى جانب الأحواش الجنائزية التي وقفت على فئات معينة مثل الجماعات الصوفية كالقلندرية[٣].

وينقل «مجير الدين» صورة واضحة عن التخطيط العمراني لمدينة القدس في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) أواخر العصر المملوكي الذي كانت فيه القدس العربية الإسلامية متسعة عمرانًا بفضل الأوقاف، حيث أخذ تقليد تخطيطها وعمارتها بعدًا معماريًا وفنيًا أكثر من كونه بعدًا دينيًا فيما بعد حتى باتت الهوية المعمارية للقدس هوية عربية إسلامية بفعل الأوقاف، ممثلة بقبة الصخرة والمسجد

(١) قليبو، علي، المعالم المعمارية في القدس المملوكية، ترجمة د. عبدالرحمن هاشم، إصدار برنامج القدس لإعمار البلديات القديمة، مؤسسة التعاون للدراسات والنشر، فلسطين ٢٠١٩م، ص٩.

(٢) يشو، علاقة المغاربة بفلسطين الرحلة والوقف، ص٩١.

(٣) كوهين، القدس في عصر المماليك، ص١١٤.

الأقصى وباقي عناصر النسيج المعماري للمدينة، أي أن اليهود لم يستطيعوا تحقيق أي وجود دنيوي أرضي عمراني أو معماري في القدس، ولم تفدهم الحفائر المتعاقبة ومحاولات إيجاد الهيكل المزعوم بأي شيء، ومن ثمّ كان ما تبقى لهم هي فقط تلك الدعاوى الغيبية التي تزعم بأن الهيكل سينزل من السماء مع المسيح المنتظر[1].

ثالثًا: خصائص الوقف وعمائره الأيوبية والمملوكية في القدس الشريف:

- حدثت تطورات جديدة للأوقاف في عصر الدولة الأيوبية، تمثلت في وقْف البيوت لسكنى الضعفاء وهي ظاهرة إنسانية تعبّر عن مدى حضارية الوقف الإسلامي، إذ اعتُبرت تلك البيوت بمنزلة ملاذ ومقام للسيدات والأرامل والمطلقات والمسنات ممن لا عائل لهن، وكانت توفر فيها حياة كريمة شريفة من إقامة ومأكل وملبس ومشرب، وصيانة لهن من الانحراف، مع مواظبتهن على العبادة وتوافر الرعاية والإشراف الدائم، إلى جانب الأربطة[2].
- ورثت الدولة المملوكية نظام الوقف عن الأيوبيين، وسارت على نفس المنهج الذي سار عليه الأيوبيون في الاعتناء بالأوقاف، وليس أدل على ذلك من مآثرهم الوقفية الباقية، وانتشر نمطان رئيسان من أنماط الأوقاف في عصر الدولة المملوكية بالقدس وغيرها من المدن، وهما المدارس والخوانق، إذ كانت الخوانق تُبنى للصوفية - وهي الأربطة قبل العصر المملوكي - وتؤدى فيها أغراض دينية وتعليمية في الوقت نفسه، حتى إن هناك تداخلًا بين مصطلح المدرسة ومصطلح الخانقاة، وإن لم يكن هناك اختلاف جوهري في التصميم المعماري، إذ يعتمد تصميم كل من المدرسة والخانقاة على فناء أوسط مكشوف تتعامد عليه أربعة أواوين بواقع إيوان في كل ضلع، أو إيوان واحد أو إيوانان أو ثلاثة أواوين حسب حجم البناء وتكلفته وإمكانيات الواقف والموقع المتاح للبناء، ويقع خلف الجدران في المناطق الموجودة بين الأواوين، وبعضها

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٥١.

(٢) ملكه، محمد أحمد، حضارية الوقف في العصر المملوكي «٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م» وأثرها على العصر العثماني، بحث بمجلة أوقاف، الكويت، العدد ٤٤، السنة ٢٣، ذو القعدة ١٤٤٤هـ/ يونيو ٢٠٢٣م، ص٨٢.

حجرات تعرف بالخلاوي، وتكون للطلاب في المدارس والمريدين في الخانقاوات، وأما الملحقات الأخرى من دورات المياه وغيرها فتأتي غالبًا في عكس اتجاه الريح من موقع المدرسة، لاسيما الإيوان الرئيسي بها (إيوان القبلة).

- مثلت الأوقاف في القدس أسلوبًا لفرض الهيمنة الإسلامية على المدينة، فأمر صلاح الدين عقب استردادها ببناء المدرسة الصلاحية، وإصلاح ما أفسده الصليبيون في المسجد الأقصر وقبة الصخرة إعلانًا بعودة السيطرة الإسلامية على المدينة، ومن ذلك ما فعله السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، حين أخذ على عاتقه مهمة إعادة تشييد المباني في منطقة الحرم القدسي الشريف، وقد ابتكر حلًا لضمان الأمن بالمدينة من خلال موازاة الاحتفالات الدينية المسيحية بإقامته ووقفه على ضريحين جديدين قريبين خصّص أحدهما للنبي موسى عليه السلام غرب أريحا، والآخر للنبي صالح عليه السلام في رام الله، وحدد الاحتفالات الخاصة بهذين النبيين - مع تأكيدنا على بدعيّة هذا - لتقام في الأسبوع السابق لاحتفالات عيد القيامة؛ إذ كان وقت الاحتفال به يشهد مخاطر كبيرة مع اكتظاظ المدينة بالمسيحيين، ومن ثم استطاع أن يجعل للمدينة طابعًا إسلاميًا بفضل الأوقاف يسبق احتفالات عيد القيامة، ويضمن من خلاله التعددية الدينية، وذلك مع وجود المسلمين بكثرة إذ كان الزوّار المسلمون يحاصرون القدس ويملؤونها خلال تلك الفترة، ويسيرون في جماعات حول القدس متجهين إلى الحرم، ومن ثم صارت احتفالات المسيحيين بهدوء؛ لأنهم موقنون بأن حشودًا من المسلمين قريبة مستعدة للدفاع عن القدس إذا اقتضى الأمر[1]، ومن ثمّ مثلت الأوقاف نواة عمران القدس في العصر المملوكي بدءًا من عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بعد التصدي لخطر المغول، وكانت الفكرة في زيادة الاستيطان من قبل المسلمين لفرض سيطرة الهوية الإسلامية، فتسابق سلاطين المماليك في إنشاء المؤسسات الوقفية في القدس خاصة التعليمية منها، مما أسهم ليس فقط في تطور الحركة العلمية والثقافية في القدس، بل أيضًا في التطور العمراني بالمباني والأسواق التي أُنشئتْ، وتركت لنا تراثًا معماريًا مهمًا، كما شمل هذا

(١) آرمسترونج، كارين، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، سطور للترجمة والنشر، ١٩٩٨م، ص٤٩٩؛ ملكه، حضارية الوقف في العصر المملوكي، ص٩١.

التطور أيضًا القطاع الاقتصادي ليس فقط من خلال بناء الأسواق والحمامات وغيرها، وإنما من خلال وقف كثير من القرى والمزارع والأراضي الزراعية المنتشرة في ربوع فلسطين مما أحدث نهضة عمرانية متكاملة في أقطارها حيث خصصت عائداتها للنفقة على مؤسساتهم الوقفية في القدس الشريف، فقد بنى المماليك ٢٧ مدرسة وقفية تركزت معظمها في الجهة الغربية والشمالية للحرم[١].

- بلغ الاهتمام بوقف أسبلة الماء التي تقدم خدماتها بالمجان أمرًا عظيمًا، وكان توفير الماء من أهم الأعمال الخيرية التي تقوم بها الأوقاف في القدس، ومن ذلك سبيل شعلان الأيوبي (شكل: ١٥)، وسبيل السلطان قايتباي المملوكي (شكلا: ١٦ - ١٧)، إلى جانب تعمير قناة السبيل، وبناء الخزانات والآبار والقناطر برعاية الأوقاف لتكون سببًا في ازدهار عمران القدس الشريف.

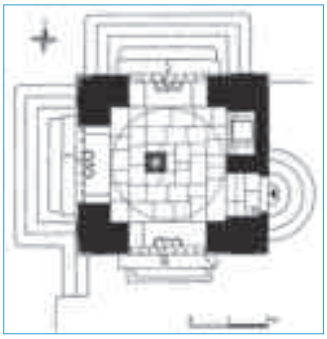

الأشكال (١٥ - ١٧): صورة لواجهة سبيل شعلان (أقصى اليمين)، وواجهة ومخطط سبيل السلطان قايتباي (في المنتصف وإلى اليسار)[٢]

(١) سرور، موسى، دور الأوقاف الإسلامية في التنمية العمرانية في القدس، حوليات القدس (مجلة دورية تعني بتاريخ مدينة القدس ومجتمعها وثقافتها)، تصدر عن مؤسسة الدراسات المقدسية، ملف القدس ١٤، خريف - شتاء ٢٠١٢م.

(٢) عن:
https://islamicart.museumwnf.org/database_item.php?id=monument;isl;pa;mon01;18;ar

- قام الوقف الأيوبي والمملوكي في القدس بإسهامات كبيرة في إرساء أسس الحضارة الإسلامية بها، وفي النهوض بمجتمعها الذي شهد تطورًا كبيرًا وازدهارًا لمختلف الأنظمة والمجالات ذات الصلة بالوقف حتى صار للوقف أثرًا أساسيًا في المجال الديني والتعليمي، يشمل المدارس والكتاتيب، ومن ثمّ كثرت المدارس بدءًا من المدرسة الصلاحية فالمعظمة من العصر الأيوبي، إلى مدارس العصر المملوكي كالتنكزية والسلامية والأشرفية وغيرها.

- حافظت الأوقاف الأيوبية والمملوكية في القدس الشريف على الصحة العامة بأخذ احتياطات السلامة عبر النظافة الدائمة، إذ تضمنت وثائق الوقف على ضرورة تصريف الماء غير النظيف خارج العمائر الموقوفة، مع توفير صرف دائم لئلا تتجمع هذه المياه؛ فتؤذي الناس[1]، وقد ورد في إحدى وثائق الوقف: «ويصعد إلى ذلك وإلى المسجد الآتي ذكره من السلم الحجري الذي داخل المدرسة المذكورة - وهي المدرسة التنكزية بالقدس الشريف -، وهاتان الطبقتان المذكورتان برسم سكن من يختار الناظر في هذا الوقف إسكانه فيهما، وظهور ذلك جميعه..... وفائض مياهه وأوساخ مرتفقاته تتصرف إلى قناة الوسخ التي استجدها الواقف المسمى بحق واجب هذه المدرسة المذكورة من القبلة بحارة المغاربة ومن الشرق الحرم الشريف»[2].

- محافظة الأوقاف على ترميم العمائر الموقوفة لضمان استمراريتها في أداء رسالتها، وهو ما حافظ على وجودها إلى الآن - لولا الحروب والتدمير البشري الصهيوني الجائر -، إذ تعاقبت نصوص وثائق الوقف بتوظيف شادّ العمارة أو متعاهد إصلاحها بمجرد حدوث ضرر جزء منها لئلا يتلف، ومن هذا حرص نظار الوقف على تعاهد عمارة الأوقاف جميعها[3]، وقد ورد في وثائق الوقف:

(١) ملكه، حضارية الوقف في العصر المملوكي، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٢) الطل، عثمان إسماعيل؛ حجه، شوكت رمضان، حجة وقف الأمير سيف الدين تنكز (المدرسة التنكزية)، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، مج ١٩، العدد الثاني، يونيو ٢٠١١م، ص١١٥٣.

(٣) ملكه، حضارية الوقف في العصر المملوكي، ص١٠٨ - ١٠٩.

«... وعلى مصالح الأماكن الموقوفة المشار إليها بعاليه وعلى ما يأتي ذكره فيه على أن يبدأ ناظـر الوقف المذكور مما يتحصل تحت يده من أجور ذلك وريعه ومغله بعمارة جميع الموقوف المذكور في هذا الكتاب وإصلاحه وتجديد ما يهيئ من أبنية، ويفرش المدرسة والمسـجد العلوي الذي على القبو المشار إليه في هذا الكتاب، وبمـا لاصقه من أبنية وبفـرش رباط النسـاء المذكور بالحصر والبسـط، وتنوير ذلك جميعه على العادة، فيمثل ذلك كله، ويبتاع في كل سنة بخمسين درهمًا فضة من المتعامل بها شـمعًا برسم صلاة التراويح وبخورًا من الطيب يبخر به في المسجد الذي هو الإيوان القبلي من المدرسة المذكورة عند صلاة التراويح بالمسجد المذكور»[(١)].

وفي وثيقة وقف علاء الدين البصير على رباطه بالقدس الشـريف سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) ما يلي: «يصرف الناظر بعد العمارة فـي الرباط والصهريجين به والمطهرة المختصة به وباقي رقبـة الوقف لتعمير الرباط المذكور في كل شـهر ثمانية دراهم، وعليه كنسه وغلقه ونتحه وتنظيفه...»[(٢)].

- وأما عن سمات الطرازين المعماريين الأيوبي والمملوكي بالقدس الشريف من واقع العمائر الموقوفة، فيمكن تناولها في الجدول التالي:

(١) الطل؛ حجه، حجة وقف الأمير سيف الدين تنكز، ص ١١٦٣.

(٢) العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣١٦.

مفردات السمات المعمارية الوقفية	الطراز المعماري الأيوبي	الطراز المعماري المملوكي
١. النمط العام	استخدمت العمارة الأيوبية الحجارة الكبيرة التي تشبه إلى حد ما عمارة الاحتلال الصليبي، وهي حجارة غير مشذبة، كما استخدمت بعض العمائر الصليبية أساسًا للعمائر الأيوبية، بل ربما تحولت الوظيفة دون تغير في عمارة المبنى بما يجعل الانسجام المعماري بين الطرازين متشابهًا، حتى أطلق عليه بعض مؤرخي الفنون «بطراز أيوبي أفرنجي متداخل»[١].	بنيت العمائر الوقفية المملوكية من حجارة مهندمة، أو مصقولة، واستخدمت الحجارة صغيرة الحجم مقارنة بالعمائر السابقة عليها، فيما كثر بناء الواجهات بنظام الأبق والمشهر مختلفي الألوان لإعطاء شكل جمالي، وبنيت أجزاء كثيرة منها أعلى بنايات قديمة، ومن ثم اختلفت طوابق المباني.
٢. التخطيط	اشتهرت العمارة الأيوبية الوقفية بالقدس بالمدارس وفق الطراز الإيواني، وكان الإيوان سمة للعمارة الأيوبية، وأما المباني الأخرى السكنية والمدنية عامة فقد تبعت نفس التخطيط الشائع من الإيوانات، وكذلك الأسبلة بسيطة البناء، أما المباني التجارية فقد اشتهرت الفترة الأيوبية بالأسواق أو المحلات المسقوفة التي تتعامل بالتجزئة.	حافظت العمارة المملوكية على الإيوان الموروث من العمارة الأيوبية، وطورته، واختلفت أحجامه من مبنى لآخر، وكذلك الحال في العمائر الأخرى، وكذلك الأسبلة، فقد بنيت من مبنى مربع أو مستطيل يعلو صهريجًا سفليًا يخزن مياه الأمطار، ويعلوه كتاب لأطفال المسلمين، أما المباني التجارية فعرفت الخانات متعددة الطوابق حول فناء مكشوف، وعرفت كذلك المحلات المسقوفة المنتشرة في ربوع المدينة.

(١) النتشة، يوسف، تراث القدس المعماري للقدس، دراسة في تطوره وطرزه وأعلامه وعناصره المعمارية والزخرفية، مؤسسة التعاون، القدس، ٢٠٢٠م، ص ٧١.

مفردات السمات المعمارية الوقفية	الطراز المعماري الأيوبي	الطراز المعماري المملوكي
٣. المداخل	تميزت العمائر الأيوبية بقلة المداخل التذكارية، وبساطة تكوينها نظرًا إلى الاهتمام بالمبنى وقوته لا بشكله وهيئته.	تميزت المداخل المملوكية بالارتفاع والتنوع في الشكل والثراء الزخرفي لا سيما في الفتحات التوأمية
٤. التغطيات	اعتمدت على الأقبية المتقاطعة لكونها أشد ثقلًا وقوة لحمل الحجارة الكبيرة، وقامت بعض القباب على مناطق انتقال من حنايا ركنية تخلو من الزخارف أو شكلت بداخلها صدفة مفصصة أو محارية مشعة أو مثلثات ركنية مقلوبة قاعدتها للأعلى.	اعتمدت التغطيات على الأقبية المتنوعة منها الطولية النصف دائرية ومنها الأقبية المتقاطعة، ومنها القباب القائمة على مثلثات ركنية مقلوبة أو التي ملئت بحطات من المقرنصات الشبيهة بخلايا النحل
٥. العقود	استخدمت في العمارة الأيوبية بالقدس عقود مدببة كبيرة الحجم نظرًا إلى البناء بالحجارة الكبيرة، وأحيانًا زخرفت العقود بوسائد متعددة متتالية ليظهر العقد على هيئة مفصصة.	استخدمت العمارة المملوكية في القدس عقودًا متنوعة: منها المدببة، ومنها نصف الدائرية، ومنها العقود الثلاثية متعددة الفصوص
٦. النوافذ	جاءت النوافذ في العمارة الأيوبية من فتحات مستطيلة أو مربعة.	تنوعت أشكال النوافذ في العمارة المملوكية، فمنها النوافذ المستطيلة والمربعة، ومنها المعقودة المعروفة باسم المطاولات، ومنها النوافذ المستديرة المعروفة بالقمريات.

مفردات السمات المعمارية الوقفية	الطراز المعماري الأيوبي	الطراز المعماري المملوكي
٧. الخط العربي	استخدم خط النسخ في كل النصوص والكتابات على العمائر الأيوبية، إذ كان لديهم رفض تام للكتابة بالخط الكوفي القديم؛ لكونه كان سمة للعمارة الفاطمية الشيعية.	استخدم المماليك خط النسخ امتدادًا للأيوبيين، ثم برعوا في استخدام الثلث بعد ذلك من الإسهام الحضاري للمماليك في مجال الخط العربي وتطوير خط النسخ.
٨. الزخارف	تتسم العمائر الأيوبية بالتقشف الزخرفي والفقر الجمالي لا سيما في الجدران والحوائط والتغطيات والواجهات، مع عدم انتظام الشكل الخارجي للواجهات.	تتسم العمائر المملوكية بالجمال والتأنق حتى مع قلة الزخارف والأشكال الفنية، ذلك أن العمارة المملوكية استخدمت من عناصر العمارة أشكالًا فنية في ذاتها، كالمداخل المتنوعة ثلاثية الفصوص، واستخدام أسلوب الأبلق والمشهر في البناء، الذي تتناوب فيه ألوان الحجارة أو الرخام المستخدم في بناء الواجهات، والكوابيل الحجرية لحمل الشرفات، كما غُطّيت الأرضيات بتكسيات[١] حجرية ورخامية.

جدول يوضح أهم الفروق في خصائص العمارة الوقفية الأيوبي والمملوكية بالقدس الشريف

(١) تكسيات: من الكسوة.

خاتمة البحث

من سياق ما تناوله البحث يتضح أثر الوقف في تطور عمران البلدة القديمة بالقدس الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، إذ كان الوقف هو ملاذ المدينة، نظرًا إلى حاجتها إلى العناية والاهتمام مع عزوف التجار والأغنياء عنها لكونها مدينة لا تتوافر فيها مقومات المدن الزراعية والصناعية.

ويمكن أن نوجز أهم نتائج الدراسة فيما يلي:

- كان للوقف الإسهام الأبرز في سد احتياجات أهلها من المجاورين والمرتحلين إليها لاستيطانها إثر دعوة صلاح الدين الأيوبي إبان تحرير المدينة من الاحتلال الصليبي.
- باتت القدس واحدة من أشهر مدن الإسلام اقتصاديًا وعمرانيًا بفضل الوقف، مع كونها كذلك دينيًا، وقد ظهرت انعكاسات الاهتمام الوقفي بالمدينة عبر الزراعة والصناعة وكذلك التجارة.
- ترجم الانتعاش الاقتصادي في صورة تطور عمراني ومعماري لها، فاتسعت رقعة العمران، وزادت أنواع العمائر وأمثلتها لا سيما المدارس والزوايا والأسواق، بما يشهد بتاريخ حافل للعمران والاقتصاد الوقفي في المدينة لا سيما في البلدة القديمة بها، ومثّل الوقف الإسهام الأساسي في إنشاء العمائر الأيوبية بالقدس، من ترميم سور البلدة، وإنشاء المدارس العلمية كالصلاحية والأفضلية، وإنشاء العمائر المائية كسبيل شعلان، فضلا عن إنشاء الأحياء والحارات والشوارع والأزقة.
- كان حي المغاربة أكثر الأحياء عمارة بفضل الأوقاف الأيوبية، وشكل منحنى تاريخيًا لتطوّر عمران البلدة جميعها، علمًا بأنّ الأوقاف قد شملت كل مدينة القدس.
- تبع المماليك أسلافهم الأيوبيين في العمل على تطور عمران القدس عبر إقامة الأوقاف المنوعة.
- لم يقتصر الوقف في القدس على منطقة معينة، بل امتد داخل ربوع البلدة القديمة في كلا العصرين الأيوبي والمملوكي، وإن تركز في العصر الأيوبي على حي المغاربة.

- عمل الوقف المملوكي على تطور عمران القدس عبر عدة مسارات، بدأت بتعمير الأوقاف القديمة، وإنشاء أوقاف عمرانية أخرى تمثلت في قناة السبيل، التي شجعت على البناء والتعمير. وارتكز التطور العمراني في أرجاء البلدة القديمة في القدس خارج الحرم الشريف عبر محورين بنيت فيهما الأوقاف، وهما طريق باب السلسلة وطريق الواد (أو خط وادي الطواحين).
- كانت اتجاهات العمران الوقفي المملوكي داخل الحرم القدسي الشريف سببًا رئيسًا في تطور عمران القدس؛ إذ أنشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون عددًا من الأروقة داخل الحرم الشريف، وأنشأ السلطان الأشرف قايتباي كلا من المدرسة الأشرفية، والسبيل، في منطقة الحرم.
- دمجت العمارة الوقفية الأيوبية والمملوكية بين العمارة الجديدة الموقوفة والبناء القديم القائم أو بقاياه، وأعيد تصميم المباني وتغيير معالمها لتخدم الاستخدامات الوظيفية الجديدة بمفهوم الإملاء الحضري والتتابع العمراني.
- اتسم الوقف في القدس بالشمولية، وكان الأثر الأوضح للعيان ولا يزال، هو كثرة العمائر التابعة للأوقاف الأيوبية والمملوكية.
- أبدع المهندسون في إخراج العمائر بشكل منتظم من الداخل على عكس ما يرى من الخارج، وتعددت طوابق المباني عموديًا مع اختلافها من جزء لآخر، وتعددت في اتباعها لمبنى آخر دون غيره، فقد يأتي بناء بعض المباني أعلى طوابق من مبانٍ أخرى، لتصبح المباني السابقة قاعدةً يُشاد فوقها أو بتعديلها لتتناسب مع تصاميم المنشآت الجديدة، ومن ذلك ما حدث في المدرسة الأرغونية.
- تضمنت أعمال التطور العمراني للبلدة القديمة في القدس الشريف أعمالًا يطول نفعها للناس لما بعد الوفاة، وتمثل ذلك في إنشاء المقابر ومنها مقبرة ماميلا ومقبرة باب الرحمة والمقبرة أعلى الزاوية الأدهمية إلى جانب الأحواش الجنائزية الكثيرة التابعة للزوايا والعمائر المختلفة.

- تهدمت بعض العمائر الموقوفة والأحياء الإسلامية القديمة خاصة حي المغاربة، فيما بقيت غالبية أجزاء البلدة القديمة ومآثرها الوقفية من العصرين الأيوبي والمملوكي، ولا زالت تتبع إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس الشريف، نسأل الله ﷻ أن يحفظها من أيدي العابثين ومن التدمير والهدم.

توصيات البحث

يوصي البحث بضرورة الحفاظ على الأوقاف الإسلامية داخل البلدة القديمة بالقدس الشريف وخارجها، والعمل على إدراجها ضمن الموروث الثقافي الديني وتسجيلها مواقع للتراث بكونها تراثًا باقيًا يمثل حقبة تاريخية مهمة جدًا في تاريخ المدينة، كما يوصي بضرورة إنشاء كيان عالمي يختص بالدفاع عن الأوقاف وضمان استمرارية وجودها وتقديم خدماتها؛ لكونها إرثًا اشترك في إنشائه غالب المسلمين في كل أرجاء المعمورة من مشرقها إلى مغربها.

يوصي البحث أيضًا بتعظيم التعريف بحضارة وثقافة الوقف ورسالته في المجتمع المسلم، وإبراز أهميته في حياة المدن الإسلامية وعمارتها وعمرانها، وتنوع مجالات عطائه.

ينادي البحث بضرورة إجراء الترميمات والإصلاحات اللازمة للعمائر الوقفية القائمة في القدس، وكذلك المدن الإسلامية الأخرى، وجعلها أماكن غير قابلة للنزاع المسلح للحفاظ على ما تبقى منها، مع الحثّ على ضرورة بناء ما تهدم منها.

المصادر والمراجع العلمية

أولًا: المصادر والمراجع العربية:

القرآن الكريم.

إبراهيم، عبداللطيف، وثيقة وقف السلطان قايتباي، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة، القاهرة، ١٩٦١م.

أحمد، رويدة فضل، المدرسة الصلاحية في القدس (٥٨٨ - ١٣٣٦هـ/ ١١٩٢ - ١٩١٨م)، رسالة ماجستير بجامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٥م.

الأصفهاني، أبي عبدالله محمد الكاتب القرشي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣ - ١٥١٦م)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م.

أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

باعامر، محمد سالم بكر، أنماط الاستثمار في مدينة بيت المقدس عصر سلاطين المماليك: دراسة وثائقية، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع٦٦، يناير ٢٠١٣م.

البرغوثي، يوسف، مدينة القدس: التاريخ والحضارة، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٦م.

برهان الدين المرغيناني، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبدالجليل الفرغاني (ت: ٥٩٣هـ)، الهداية في شرح بداية المبتدي، تحقيق: طلال يوسف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

الحداد، محمد حمزة، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، الكتاب الثاني: الأسبلة السليمانية في القدس، ط١، دار القاهرة للنشر، ٢٠٠٤م

حسن، نوبي محمد، قيم الوقف والنظرية المعمارية ـ صياغة معاصرة، بحث بمجلة أوقاف، تصدر عن الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، السنة الخامسة، العدد ٨، ربيع الأول ١٤٢٦هـ/ مايو ٢٠٠٥م.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت: بعد ٣٦٧هـ)، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م، ج ١.

الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبدالله (ت: ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦م، ج ٥.

الخطيب، محمد عثمان، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)، أطروحة مقدمة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ، جامعة اليرموك، ٢٠٠٧م.

خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دار طلاس للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٨٧م.

الداغش، مها أحمد، آثار وتاريخ الحرم القدسي خلال العصر الأيوبي (٥٦٤ - ٦٤٨هـ/ ١١٦٥ - ١٢٥٠م)، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.

الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، دار الهدى ـ كفر قريع، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٩١م.

دُوزِي، رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، الأجزاء١، ج٨، جمال الخياط، الجزاء ٩ - ١٠، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط ١، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م.

ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد ت: ٧٩٥هـ، الاستخراج لأحكام الخراج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى، الفقه الإسلامي وأدلته (الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)، دار الفكر، سورية، دمشق، ط ٤.

زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٤٣م.

سابق، السيد، فقه السنة، الفتح العربي للإعلام، ط ١٠، ج ٣، القاهرة، ١٩٩٣م.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة (ت: ٤٨٣هـ)، المبسوط، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

شاهين، رياض، أرض فلسطين وقف إسلامي من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الإسلامية، مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠٠٧م، بحث منشور على الرابط الإلكتروني: http://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?itemid=5740#.Y0hzAT1BzIU الاطلاع الساعة ٩: ٣١، بتاريخ ٦/ ١١/ ٢٠٢٢م.

شبير، محمد عثمان، بيت المقدس، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج٣، ع٦، ديسمبر ١٩٨٦م.

شراب، محمد محمد، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دراسة تاريخية موثقة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م.

طوباش، عثمان نوري، العثمانيون ـ رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة، ترجمة: د. محمد حرب، مراجعة وتصحيح: محمد أوقومش، دار الأرقم للطباعة والنشر، إستانبول، ٢٠١٦م.

الطيباوي، عبداللطيف، الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس: أصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها، ترجمة: عزت جرادات، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، الأردن، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

العارف، عارف باشا، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط٥، ١٩٩٩م، ج١.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق» تهذيب عبدالقادر بدران»، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، نشر بدعم الجامعة الأردنية، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٥م.

علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م.

العليمي، مجير الدين (ت: ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ـ الأردن، د.ت.

كرد علي، محمد بن عبدالرازق، ت: ١٣٧٢هـ، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

كوهين، أمنون، القدس في عصر المماليك، في كتاب «القدس: دراسات في تاريخ المدينة، تحرير إسحاق حسون، ترجمة: سلمان مصالحة، نشر: ياد يتحساق بن تسفي، ١٩٩٠م.

ماسينيون، لوي، وثائق عن أوقاف الأماكن المقدسة في الإسلام ـ وقف التميمي في الخليل وأبو مدين في أورشليم القدس، ترجمة وتقديم: د. مي محمود، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ٢٠١٦م.

مرسال، أميرة، إستراتيجية الحفاظ على الهوية المعمارية العربية بالقدس، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، ع١٨.

المستعصمي، محمد بن أيدمر (ت: ٧١٠هـ)، الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق د. كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ج٥.

المظهري، محمد ثناء الله، التفسير المظهري، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، ١٤١٢هـ، ج٤، ص٩٢.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج٧، ١٩٠٠م.

ملكه، محمد أحمد، حضارية الوقف في العصر المملوكي «٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م» وأثرها على العصر العثماني، بحث بمجلة أوقاف، الكويت، العدد ٤٤، السنة ٢٣، ذو القعدة ١٤٤٤هـ/ يونيو ٢٠٢٣م

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين حمد بم مكرم بن علي (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، حواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج٦.

المنهاجي الأسيوطي، شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبدالخالق، ثم القاهري الشافعي (ت: ٨٨٠هـ)، إتحاف الأخِصّا بفَضَائل المسجد الأقصى، تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ - ١٩٨٤م

نجم، رائف يوسف، وآخرون، كنوز القدس، عمان، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٣هـ.

الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي ت: ٢٢٤هـ، كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، د.ت.

الواسطي، أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد، فضائل البيت المقدس، تحقيق: عصام محمد الشنطي، طارق عوض الله محمد، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية ـ نيقوسيا ـ قبرص، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية الكويتية، ط٢، دار السلاسل، الكويت، ج١٩.

وزيري، يحيى، التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

يشو، حسن، علاقة المغاربة بفلسطين الرحلة والوقف، كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، العدد ١٧٢، ربيع الأول ١٤٣٧هـ، السنة ٣٦، ٢٠١٥م ـ ٢٠١٦م.

أبو يوسف، إبراهيم يعقوب (ت: ١٨٣هـ/٧٩٦م)، الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

Hopkins, Ian. W. J., Jerusalem a study in urban Geography, Baker Book House, Michigan, USA, 1970.

Newett, Margret, Conon Pietro Casala's Pilgrms to Jerusalem in the year 1494, London, 1907.